

نحو فقه حركي يجمع الأمة ويتجاوز العتبة الحزبية

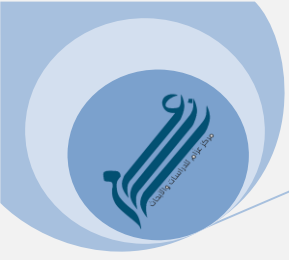
إعداد وبحث:

عباس أبو تيم شريفة



الفهرس

4.....	مقدمة البحث
14.....	الفصل الأول: أزمات الحركة الإسلامية
37.....	الفصل الثاني: تيارات إسلامية بين الشهوات والشبهات
44.....	الفصل الثالث: الفقه الحركي والانتقال من فقه الجماعة إلى فقه الأمة
105.....	الفصل الرابع: السياسة الشرعية الرشيدة
120.....	الفصل الخامس: خارطة الطريق للمنهج الحركي الصحيح
147.....	الخاتمة



قال تعالى

وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ

(فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) المؤمنون (53)

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105)

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۗ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۗ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153 الأنعام)

وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [سورة الروم] (32)

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ
اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُ بِهِ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَسْتُرْشِدُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ
مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ
يَضَلَّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا.
اللهم صلي على سيدنا وأسوتنا وقادتنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم.

وبعد:

فهذه دراسة متواضعة لمعالجة الحالة الحزبية المستشرية في
ساحة العمل الإسلامي.

الحزبيّة التي غدت أفيون الشعوب الذي يُخدّر الأمّة عن إزاحة الطغاة بانشغالها في ترجيح مناهجها وافتعال خصومات بينيّة يكون الطغيان هو المستفيد الوحيد منها. لم تعد الحزبيّة تخدم إلا مصالح الأنظمة الاستبدادية في تأييد حكمها وإضعاف الأمّة المستعبدة لكي لا تقوى على الانعتاق والتحرّر ولتبقى رازحةً تحت تيّر العبودية، بل إنّ كثيراً من الطغاة عمل على تغذيتها وتأجيج سُعارها ليدوم بذلك مُلكه ويطول ليل الإذلال على الأمّة المستضعفة.

قال تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يُدَّبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (4) القَصَص.

ما أخشاه بداية أن يجير هذا الكتاب لصالح الانتصار للقوى العلمانية الرابضة على ثغور اغتنام أخطاء العاملين للمشروع الإسلامي المتصيدين في الماء العكر ليحصدوا بذلك مكاسب سياسية وليطعنوا بالإسلام من خلال أخطاء أهله. أو أن يقوم أصحاب الطبع الذبابيّ بالتقاط الهفوات ويغتموا عن حسنات الإخوة العاملين للمشروع الإسلامي. كان شيخ الإسلام رحمه الله يقول: "العلماء كالبحار ، وإذا بلغ الماء الفلّتين لم يحملي الخبث" .

لذلك أقرّر بداية أن هذا العمل موجّه للإخوة العاملين لخدمة الإسلام وهو يتناول تصحيح المسار والتنبية للمطبات المتكرّرة وُقوعنا بها. فهو عتابٌ موجّه للبيت الداخلي لمن نُوالهم بالله ولا نشكُّ بإخلاصهم.

يَجِبُ على الحركات الإسلامية أن تُصِيحَ السَّمْعَ لأصوات النّاقدين المُشفقين، لأنّ كثرة الاستماع للإطراء والتّزكية والمديح يُورثُ حالةً من الاسترخاء والاعتياش على الأمجاد والتاريخ بعد أن يَجِفَّ نهر العطاء.

مشكلة النّاقدين الإسلاميّين أنهم يُحاكِمون الجماعات والرّموزَ خارجين عن خصوصيّة الظّرف الزّمانيّ والمكانيّ لدعوتهم فيَقَعُ منهم الإجحاف.

ومشكلة المعجّبين بالجماعات والرّموز أنهم يريدون تعميمَ أفكار مَنْ يُحِبُّون على كلِّ الظّروف الزّمانيّة والمكانيّة فيقعون في التّعصّب الممّوج، والإنصاف أن تُحاكِمَ الأفكار في سياقِ خصوصيّة الظّرف.

بات من المُليحِ إنّهائُ حالة الاستقطاب بين الجماعات الإسلاميّة وإيقاف الجيوب النّاريّة والاستنزاف الحاصل لطاقتها في مواجهةٍ جانبيةٍ تُعزّزُ حالة الانقسام والاحتراّب الدّاخليّ وتُبقي الأنظمة الاستبداديّة والقوى الاستعمارية مُعتاشةً على هذا التّزيف.

إنّ الحركات الإسلاميّة أمام خيارين في سعيها الحثيث لإخراج الأمّة من رقبة التبعيّة:

- 1- تحقيقُ الانعتاق الكليّ من قُوى الهيمنة العالميّة يحتاج إلى امتلاكِ لأدوات الحضارة الماديّة، وهذا ما لم يُسعى إليه إلى الآن.
- 2- تحقيق الانعتاق الجزئيّ يحتاجُ إلى سياسةٍ شرعيّةٍ صحيحةٍ ورؤيةٍ شرعيّةٍ واضحةٍ وتعبئةٍ شعبيةٍ وبناءٍ جبهةٍ من الخلفاء الأقوياء واصطفاف متين.

وغير ذلك ستبقى الأمّة في دائرة التّبعيّة المطلقة والاستنزاف إذا ما كان السّعيّ نحو الانعتاق الكليّ بدون امتلاكِ لخاصيّة التكنولوجيا المتطورة والعلم الماديّ الدّاخِل في الفروض الكفائية والنظر إلى ذلك أنّه جزءٌ من الإعداد الماديّ الدّاخِل في دائرة التّكليف.

المتأملُ في نشوء التيارات الإسلاميّة يجد أنّها أو في غالبها إفرازاتٌ للمشاكل التي عصفت بالأمة، فحركة الإخوان المسلمين الحركة الأم للجماعات الإسلاميّة تراقق تأسيسها مع سقوط الخلافة الإسلاميّة، والسلفيّة الجهاديّة ترافقت مع احتلال أفغانستان، والجهاد الأفغانيّ وحزب التحرّير جاء بعد ضياع فلسطين، والصوفيّة نشطت بعد إغراق أبناء الأمة بالترف والملدّات. تكاد تكون هذه الحركات إفرازاً لأزمات مرّت بها الأمة، لذلك كانت إستراتيجيتها العامّة مَوْصُومَةً ومشبعةً ومتأثرةً بشكل واضح بالأزمة التي جاءت هي كردّة فعلٍ لعلاجها، ممّا غيّب عنها النظرة الشموليّة والبحث في جذور الأزمات التي تسبّبت بقيام هذه الحركات، وغلب على مناهجها حُطّة علاج الأزمات بدلاً من حُطّة البناء والنظرة الاستيعابية للمنهج والتاريخ والواقع، فهي حركات موصومة بعقدة الأزمة.

في رأيي المتواضع أنّ أي تيّارٍ إسلاميٍّ جديد حتى يخرج من مسألة القياس على التجارب السّالفة يجب أن يلتزم بضوابطٍ شرعيّة واضحة في تحديد الأولويّات، فمسألة الخروج على الإمام الكافر أو الجائر ونصب الخليفة وإقامة الشريعة وجهاد الطلب وتوليّ الولاية في الدولة الكافرة هي مسائل مَنوُطَةٌ بالقُدرة والمكّنة، وتحديد ما إذا كُنّا ممكنين من عدمه هي مسألة خاضعة للاجتهد المَحْض ليس لها مُحدّد شرعيّ، ومن الطبيعي أن يقع فيها الاختلاف والتّباين. ولكن حتى تنضبط المسألة هنا، يجب على هذا التيار الجديد أن ينضبط باجتهاده بقواعد أصول الفقه، وهو الشيء الذي طالما كان غائباً عن أدبيّات الجماعات الإسلاميّة لأنّ الفكر والمفكّر هو معنى مرادفٌ للاجتهد والمجتهد، ومن الضروري أن يمتلك هذا المفكّر أدوات التّفكير ليكون تفكيره مؤصّلاً. أغلب الاجتهادات التي أخرجها المنظرون كانت مبنية على أصول جماعتهم ومتماشية مع مُخرجات أحزابهم ومتماشية في تبرير السياسة لا في ضبطها.

ولا بد لهذا التيار أن يدرس الواقع بعناية لأن اضطراب الفتوى واضطراب الموقف السياسي يأتي دائماً من تضخيم الواقع أو التّهوين منه مما يؤدي لاتخاذ مواقف واجتهادات مضطربة كان من نتائجها حصاد المزيد من الهزائم والانتكاسات والقرارات الاعتبائية. كذلك على هذا التيار الجديد أن يوسّع من دائرة الفقه لديه ويعمل على رؤية الواقع من زوايا فقهية عديدة.

ونحن إذ نبشر بهذا التيار لا نقصد بالضرورة أن يكون حزباً جديداً يُضَمّ إلى قائمة الأحزاب التي تعجّ بها الساحة، وإنّما نقصد به حركة اجتماعية تتوظّف من خلالها كلّ طاقة الأمة في سبيل حمل المشروع الإسلاميّ دون إقصاء لأي طاقة مفيدة فيكون أقرب لورش العمل بين كفاءات ربما تختلف بالفكر. وهنا لا بدّ من مراكز الأبحاث التي تزوّدها بذلك، إذ كيف للفقهاء أن يفتيَ في واقع نراه من خلال عيون الغربيّين المدجّجين بمراكز الأبحاث والإحصاء؟!!

وللأسف نحن أمّة لُغَةُ الرّقىم عندها مَهْدورةٌ، وتقيّمنا للواقع يخضع للرّغبات والأهواء والانطباعات المفتقرة للموضوعية. في هذا البحث المتواضع طرحُ لأسئلةٍ كبيرةٍ لمُ أشأ الإجابة عليها بمفردتي، فإن إحدى أزمات الأمّة هو كثرة من يتكلمون بمشاكلها حتى كَثُرَت الأدويةُ التي زادت من إعيائها، ولظني أنّ الحلّ لن يكون إلا من خلال العَصْفِ الدّهنيّ لمجموع الأمّة قد تصل إليه الأمّة من أتون المِخَن ومن تحت ركام الألم وخطب المصاب وكثرة الجراح، ذلك أن التجارب الذاتية والابتلاءات العامّة هي التي تُرسيّح المفاهيم والحقائق وتجمع الأمّة على كلمة سواء بعيداً عن التنظير الذي يطلّ إلينا من الترف الفقهي والبروج العاجية للأحزاب التي تمارس دور الوصاية على أمّة يرونها قاصرة لم تبلغ سنّ الرشد. ولعلها حركة تجديدية تنهياً للأمّة للانضواء تحتها تقودها طائفة الحقّ المنصورة التي لا أرها تتمثل بجماعة أو حزب أو تنظيم. كثيراً ما تقع الأحزاب الإسلاميّة ضحية بين خطاب الإطراء الذي يُغفلُ المعايير ويظهرُ المثالب وبين خطاب العداء الذي يضخّم

المثالب وَيَغْمِط الحسَنَات، فَيَتَسَبَّبُ ذَلِكَ بِإِخْجَامِهَا عَنْ أَيِّ خُطْوَةٍ
نَحْوِ الإِصْلَاحِ بِسَبَبِ غِيَابِ مَنْطِقِ النُّصِيحَةِ المَشْفِقَةِ وَشَيُوعِ الجُلْدِ
وَالنَّقْدِ وَالاسْتِئْصَالِ.

وهنا لا أنسى أن أتوجّه بالشكر الموصول للإخوة الذين تحاورت
معهم في مركز الدراسات الاستراتيجية، وكان للحوار معهم ثمار
كثيرة فُرِّغَتْ فِي هَذَا البَحْثِ. نَسْأَلُ اللّٰهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ فِي مِيزَانِ
حَسَنَاتِهِمْ...

البيان في مفردات العنوان

لابد لكل باحث من تحديد عنوان بحثه، ليكون والقارئ معاً على بصيرة فيما يحتويه البحث ويتضمنه، ويتميز به عن غيره ولكي يعرف الباحث مادة ما يبحث فيه ويبتعد عما يكون البحث فيه عبثاً، حائداً عن نقطة البحث وكذلك يكون القارئ في الوقت نفسه متصوراً لما يريد أن يجد فيه من بغية نحو فقه حركي يجمع الأمة ويتجاوز العتبة الحزبية (نحو)

"نحو" تعرب نائب ظرف مكان إذا أضيفت إلى اسم يدل على مكان، نحو: "توجهت نحو المنزل".

وتعرب نائب ظرف زمان إذا أضيفت إلى اسم يدل على زمان، نحو: "توجهت إلى البيت نحو الساعة العاشرة"

وتعرب اسماً مجروراً إذا سبقت بحرف الجر كما في قولنا "في نحو كذا"

وتعرب مفعولاً مطلقاً منصوباً (مثل نحو) وتعرب مفعول به لفعل محذوف تقديره أعني نحو..

وتحمل المعاني اللغوية التالية:
النَّحْوُ: القصد والنَّحْوُ: الجهة و النَّحْوُ: المِثْل والنَّحْوُ: المقدار، والنَّحْوُ:
النَّاحِيَة والنَّحْوُ: الطريق..

وهذا المعنى اللغوي مطلوب في الفعل الحركي من تحديد جهة المسار والسبيل والتماثل بين الفكر والتطبيق وتحديد مقدار الحركة التي يراد إنجازها في حدود الظرف الزماني والمكاني.

والالاتجاه يسمى منحى ونحا نحوه = أي أخذ مساره واتجاهه
ومسير أي جماعة إسلامية لتحقيق مقاصد الشرع يجب أن ينطلق
من تعاليم شرعنا الحنيف بكل نقاء وطهر دون دخن أو دخل أو
مواربة فلا يمكن أن نصل للغاية التي أمرنا بها الله تعالى بها من
غير الطريق الذي اختطه لنا.
قال تعالى:

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ
عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (الأنعام \153)

نلاحظ أن تباين وتعدد المسارات والسبل يتبعه تعدد وتباين الأحزاب
والجماعات لزاماً لاختلاف الجماعة على السبيل ومعالمه أثر في
تحول الجماعة إلى أحزاب
فالغاية النبيلة لا تبرير الوسيلة الفاسدة.

(فقه حركي)

الفقه الحركي: الفقه لغة بالكسر العلم بالشيء والفهم له والفتنة
كما في القاموس المحيط.
والحركي: نسبة إلى الحركة وهي في اللغة ضد السكون. ويقال
غلام حرك أي خفيف ذكي، كما في مختار الصحاح.
والفقه الحركي بمعناه اللغوي هو الفهم للأمر مع الفتنة لما قد
يطرأ عليه حال حركته من أحوال وتغيرات وما ينبني على ذلك من
آثار حالاً ومستقبلاً.

والفقه الحركي اصطلاحاً هو: فهم الأحداث الجارية وإدراك
المتغيرات والمستجدات المصاحبة لها زماناً ومكاناً وأشخاصاً،
والقدرة على إعطاء الحكم الشرعي لتلك الأحداث وربطها بالأصول
الشرعية الثابتة واتخاذ الموقف المناسب منها
فهو اجتهاد صعب يربط بين واقع سريع الحركة ونصوص ثابتة.

حركي: هو فقه حركي وليس فقه ساكن ينقل الأمة من السكون إلى الحركة ومن العشوائية إلى التنظيم ويستحي ما غُيب ودُفن من فرائض وشعائره تدخل في الفروض التي تخاطب الأمة بمجموعها كالجهاد وإقامة سلطان الله والأمر بالمعروف والمنهي عن المنكر والدعوة إلى دين الله كل هذه الفروض تتناول الأمة وليس الفرد من خلال سياسة شرعية رشيدة توصل إلى الدولة الراشدة والدعوة الراشدة والجهاد الراشد.

إذاً نحن نتكلم عن طريق ومسار يربط بين واقع مأزوم (العتبة الحزبية) ورؤية منشودة (تجمع الأمة).

(العتبة الحزبية) بين واقع الحزبية والتشرذم والافتراق والغنائية والوهن بكل أشكاله.

الحزب هو اجتماع عدد من الناس على مجموعة من الأفكار ويعملون بشكل فريق لإنجاز هدف حدوده لأنفسهم أما الحزبية فهي التعصب المقيت لمجموعة من الأفكار أو الأشخاص لا يرى الحق سواهم.

(يجمع الأمة) إلى رؤية تكون فيها الأمة على أمر جامع ونبذ للفرقة والعصبية تتمتع بالحضور والشهود وتتجه إلى إنجاز مشروعها الحضاري بتحقيق معنى الاستخلاف في إقامة العبودية وعمارة الأرض بعد أن غابت لأكثر من قرن من الزمن عن ساحة القيادة.

(الأمة)

بمفهومنا هي أمة الإجابة بكل مكوناتها لا تُختصر بطائفة ولا تُختزل بحزب أو جماعة، فهي محال خطابنا وعمقنا الإستراتيجي و الدرع الحصين الذي نأوي إليه.

وهذه الأمة لها خصوصياتها بأنها لا تجتمع على ضلالة، خير أمة أخرجت للناس، أمة الرسالة الربانية، أمة محفوظة من الهلاك والاستئصال.

فالكتاب هو معالم طريق ومشخصات استرشاد لم تخرج من طور التأصيل إلى طور التنزيل بعد وإنما مقصودنا هو أن يتوحد الفكر والتصور عند طليعة الأمة لننتقل على مسار نتفق على معالمه تحاشياً للفرقة والاحتراب والتساقط بعد الانطلاق بسبب تباين التصور قبل الانطلاق فنتفق على المسار وضبط إيقاع المسير قبل أن نقرر السير، فالمنحى الذي ننحوه هو منحى باتجاه فقه حركي يؤصل للخروج من حالة الأزمة إلى حالة السيادة والأستاذية. وبذلك يكون العنوان مستوفي لكل عناصر التخطيط الاستراتيجي من دراسة حالة الحزبية في واقع الأمة ثم الانطلاق إلى الرؤية وكيفية الوصول بالفقه الحركي الضابط للمسار والمسير إلى مشروع حضاري جامع للأمة تتوازع فيه الحركات الإسلامية الأدوار على الثغور الشاغرة.

عَنْ يَزِيدَ بْنِ مَرْثَدٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كُلُّ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ثَغْرَةٍ مِنْ ثَغْرِ الْإِسْلَامِ اللَّهُ لَا يُؤْتِي الْإِسْلَامَ مِنْ قَبْلِكَ (أخرجه المروزي)

ثغرات في الفكر والتنظيم والممارسة والإستراتيجية يجب أن تتداركها الجماعات الإسلامية:

- قيام الجماعات الإسلامية منفصلة عن الأمة بحمل مشاريع الأمة والدود عن حقوقها والتفرد بالمواجهة مع العالم المتغطرس يُسهّل على الغرب المواجهة معها والالتفاف عليها وإجهاض أي محاولة للأمة للانعتاق من براثن العبودية وتير الاستعباد بعد أن يُحَيِّد الغرب قُطَاعاً واسعاً من الأمة عن هذه الأحزاب فتفقد بذلك عمقها الاستراتيجي الرافد لها بكل عوامل القوة والثبات، لذلك كان على هذه الجماعات لزاماً تحميل المشروع للأمة وأن تكتفي بدور الموجّه والمُعِين دون الريادة، ولا تكن أول شعرة في الرأس ولا آخر شعرة في الذنب، بذلك يتم تشتيت ذهنية العدو وتوسيع نطاق

- المواجهة على العدو بدلاً من اختزالها في جماعة أو حزب.
- الجماعات الإسلامية بشتى راياتها ومُسمّياتها أضحت مستهدفة دولياً وإقليمياً، ولو كُنّت مكانها لَقُمْتُ بمراجعةٍ شاملةٍ جسورةٍ لبلورة حسة إستراتيجية جديدة.
- الفصل بين عِصْمة النصِّ واجتهادات البشر، الإسلام هو دين الله الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، أما مناهج الجماعات فهي اجتهادات البشر ويعتريها ما يعتري الجُهد البشريّ من الخطأ والصّواب والانحراف.
- عندما تناقش أصحاب التجارب الفاشلة كانوا يدافعون عن مَنهجهم بِحُجّة أنّ الفشل في التجربة لا يدلُّ على عدم صوابيّة المنهج بِحُجّة أنّ كثير من دعوات الأنبياء لم تنجح !

ولكن نقول لهم أن تكرار الفشل يدلُّ على أن الخطأ هو في المنهج وليس في التطبيق، لأنّ خطأ التطبيق كالخطأ في الوزن لا يتكرّر، أمّا إن كان الخلل في الميزان نفسه فلن يُصَحِّحَ إن ظاهريّة الفهم للنصوص تحول بينهم وبين مراجعة الثغرات وتجعل من التجربة شيئاً توقيفياً معصوماً.

- أول شيءٍ في الحسبة الجديدة أن تتحاشى الجماعات الإسلامية هذه المواجهات غير المتكافئة التي أدمنتها مع قوى ونظمٍ راسخةٍ على الأرض لها شرعية دولية، والتحاشي لا يعني الرُّكون وعدم الإعداد.
- المُطَّلِعُ على مكتبة الجماعات الإسلامية يجد لهم مئات الكتب في الجهاد والعمل والحركة ، ويجد الضّحالة في الكتب التي تتناول قضية الإعداد.

- من أهمّ مبادئ الحرب (الاقتصاد في هدر القوة)، والجماعات تبدّد قواها وتترخّصُ بذلّ دماء شبابها! يجب صيانة الخزان الاستراتيجي للجماعات والحفاظ عليه.

- الجماعات مخترقة أمنيّاً في قياداتها إلا ما ندر، وصار من السهل توظيفها في حروب وكالة (WAR BY PROXY) تخدم في نهاية الأمر أعداء الإسلام وأعدائها.

- يجب أن تدرك هذه الجماعات أننا نعيش ضمن (نظام) دولي يقوم على احتكار السلاح والخامات (نפט وقمح) والتحكم بالأعلام (إلا قمار الصناعية) وقبول دولي . من الخطأ حصر المعركة مع الغرب بالقتال فقط لأنّ الصراع مع الغرب صراع حضاري بين حضارة بازغة وحضارة غاربة والهزيمة الحضارية للغرب تحتم علينا أن ننتهي لوراثتها .

- ولدى هذا النظام الدولي مؤسسات (صلبة): جيوش وسلاح ومال وفير واقتصاديات متطورة ومزدهرة، والمطلوب دراسة المشهد بأناة قبل الانخراط في مواجهة خاسرة . يجب على القاعدة الصلبة المؤمنة المستضعفة أن لا ترمي بكل أوراقها في مواجهة الباطل فتكون أمام خيارين لا ثالث لهما:

{أنهم إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْنَا يَرْجُمُوا عَلَيْكُمْ أَوْ يُعِيدُواكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا} (20)

إمّا هلاك النفس أو ضياع الدين وكلاهما من الضروريات الخمس قد تهدر لضعف التدابير الأمنيّة في الحركة

- هل هذه الجماعات في حالة مواجهة مع (النظام الدولي)؟ أم قادرة على التعايش معه؟ المواجهة في ظني خاسرة والتعايش لا يتضح من خطاب هذه الجماعات.

- الجماعات الإسلاميّة تعمل بعفوية مفرطة وليس وفق خارطة

طريق ، ولذا صار من السهل استدراجها واستنزافها في معارك جانبية تستهلك خزانها الاستراتيجي.

- تقوم الأحزاب الأوروبية بتعيين (المدقق الداخلي) INTERNAL AUDITOR وتمنحه راتباً دسماً ومهمته نقد أداء الحزب، فلماذا لا يكون مثل ذلك عندنا؟ وغالب أحزابنا تضيق ذرعاً بأصوات الناقدين وتفرح بمدح المتزلفين!

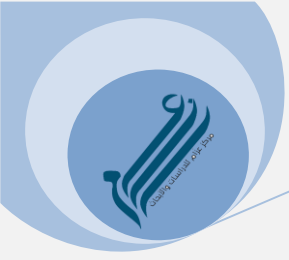
- تعقد الأحزاب الأوروبية ورش عمل WORKSHOPS مهمتها النقد الذاتي، وتدعوا ضيوفاً ومراقبين من خارج الحزب لممارسة ذلك، فلماذا لا يكون ذلك عندنا؟ بينما يصل الأمر عند بعض الجماعات إلى تكميم الأفواه وتجريم المنتقد وتصوير المنتقد للجماعة منتقد للإسلام نفسه ليقطع الطريق على كل رأي مخالف. أبو بكر رضي الله عنه في أول خطاب له بعد توليه الخلافة أرسى مبدأ النقد الذاتي وجعل من انتقاد مسيرة الحاكم وتقويمه ومحاسبته حقاً للأمة. أغلب عناصر الأحزاب الإسلامية يتعامل مع الآخر بمسطرة المقدّس والمُدنّس، من كان من جماعتي فهو مقدّس ومن كان من غيرها فهو مدنّس.

- الفرد في الجماعة مسلوب التفكير لصالح قطعية الإيديولوجية فهو متدرب على تلقي الأوامر بمطلقية مفزعة مما يقتل روح المبادرة والإبداع عند الفرد. والتي تحرص عليه الأحزاب خوفاً من نمو اللوبيات داخلها مما ينتهي غالباً بحالة من الانشقاق والتصدع.



الفصل الأول

أزمات الحركة الإسلامية



فقه الأزمة وأزمة الفقه

وقوع الأزمة يُحْتَمُّ على الجماعة أن تتعامل بفقه خاصّ غير ما كان عليه الأمر في أحوال الاستقرار، يتناسب مع طبيعة الظرف والقدرة وكميّات التحديات، وقد كَتَبَ في ذلك الفقهاءُ فقهاً خاصّاً: مثل نظريّة الظروف الطارئة في الفقه الإسلاميّ، وفقه النّوازل التي تقوم على أحكام الضرورة ورَفَعِ الحَرَجِ وحِفْظِ المقاصدِ والاقتصاد في العزائم والتوسع بالرُّخَصِ.

الخلل في عمل بعض الجماعات الإسلاميّة أنهم يتعاملون مع الظرف الطارئ بالفقه المستقر لا بفقه النوازل ومنهم من يُنْزِلُ فقه النوازل على الحال المستقر.

من أهمّ الجوانب التي يجب مراعاتها في الأزمة:

- 1- إرجاء مسائل الخلاف وتعطيل الجدل والاشتغال بالعمل.
 - 2- ترتيب الأولويات في المواجهة، وتقديم الضروريات على الحاجيات، والحاجيات على التحسينات.
 - 3- تكثير جبهة الحلفاء وتحبيد أكبر قدرٍ من الخصوم (إدارة الصراع) والاستفادة من سُنّة المدافعة.
 - 4- الابتعاد عن مُحاصِصَة الأحزاب وتقديم أهل الاختصاص والكفاءات (إدارة التكنوقراط)، مَنْطِق: مَنّا أمير ومنكم أمير مرفوض شرعاً (مبدأ المُحاصِصَة)، إنَّ خير من استأجرت القوي الأمين (مبدأ اعتبار الكفاءة) واجب شرعاً.
 - 5- توسيع صلاحيات المُتأمرين وتضييق نطاق الشورى لأجل سرعة اتخاذ الإجراءات والحفاظ على السرية.
 - 6- تحديد دائرة المناورة وتحديد الخطوط الحمراء (الثابت والمتغير).
 - 7- ترك وإرجاء المندوبات وحتى السنن ريثما يتم إقامة الفروض الغائبة.
 - 8- التوسّع في الرُّخص والاقتصاد في العزيمة (إنَّ الله يُحِبُّ أن تُؤتى رُخصه كما يُحِبُّ أن تُؤتى عَزائمه).
 - 9- استثمار الطاقات المعطلة، وإيقاف الطاقات النازفة، وتوظيف الطاقات العشوائية.
- عندما نتحدث عن أزمة عند الحركة الإسلاميّة فنقصد بذلك الأزمات الذاتية ولا نقصد التّحدّيات والمؤامرات التي تُنسج لتحيط بها من خارجها.

رصيد التجربة للحركة الإسلامية

التجارب الخاصة للجماعات الإسلامية إن كُنّا نختلف على فشلها أو نجاحها هي بالتأكيد ليست مصدر للتشريع يجب الاحتكام إليها. نحن نذكر هذه الأخطاء لتفاديها وإصلاحها، ونذكر الأساليب البالية المستهلكة من أجل تبديلها، كما نذكر تلك المفاهيم الخاطئة كي يتم تصحيحها.

ليس المقصود من البحث في التجارب تبين عور الجماعات التي نختلف معها، إنما هو تصحيح مفاهيم وتصويب أخطاء وتلافي ثغرات وترتيب أوراق وتنسيق الأولويات. لا بُدّ من غرس مفهوم أنّ مَسِيرَ أيّ جماعة إسلاميّة هو مسيرٌ اجتهادي يعتريه الصواب والخطأ، وقبل ذلك مسير بشري قد يعتريه الهوى ونقص العلم، وإلا ستتحول الجماعات لأصنام على المصلحين تحطيمها.

تُحِمْ كثير من الجماعات عن الاعتراف بأخطائها وتخشى من استغلال هذا الاعتراف في تفكّك تنظيماتها، لذلك تجدها تدافع بطريقة تبريرية مضحكة لأخطائها، بل وتجعل منها إنجازات تريد أن تُمدح بها وتتغنى بها.

إنّ العلاج من الأمراض يمرّ بثلاث مراحل أساسية، بعد التوكل على الله وطلب العافية والشفاء منه: أولها: الاعتراف بحالة المرض ونية العلاج. وثانيها: مراجعة الطبيب الثقة الأمين المؤمن، وكشف العيوب والعلل والنقائص عليه ، بلا وَجَلٍ ولا استحياء منها، حتى ولو كانت فيما يُسْتَحْيَا منه من العورات. وثالثها: تناول الدواء ولو كان مرّاً، بهمة وصدق وعزيمة على بلوغ العافية.

وقد يكون لفت النظر إلى العيوب والنقائص من خارج الصف مزعجاً، فلو تيسر الإصلاح من داخل هذه الأحزاب لكان أكثر نفعاً، ولكن نحن أمام مشكلة أخرى وهي أن المتحزب لا يرى الآخر إلا بعيون حزبه.

هناك من الأخطاء ما هو منهجيّ، وهذا يكون من صلب المنهج يصعب تصحيحه إلا بمراجعة لأخطاء المنهج والشبهات الذي تسير عليه الجماعة، ويتّسم هذا الخطأ بالتكرار والارتكاب له يكون جماعياً.

وهناك من الأخطاء ما هو سلوكي ينتج عن خطأ في الاجتهاد، أو نتيجة شهوة نفسية من فرد من الأفراد يتصف هذا الخطأ أنّه فردي غالباً وغير متكرر ويمكن علاجه بمزيد من التربية السلوكية والتوعية العلمية.

لكن في أجواء العصبية الحزبية كثيراً ما يتحول الخطأ السلوكي إلى خطأ منهجي، أحياناً تقع الجماعة في خطأ سلوكي فتكون طريقة الحل غير شرعية، تبدأ بالإخفاء له عن عيون الناقدین بحجة عدم الكلام بأخطاء المجاهدين، فإذا انكشف الأمر وكان في طور الشك بادرت الجماعة إلى النفي والتكذيب، فإذا ووجهوا بالأدلة يبدأون بالتبرير بالأدلة الشرعية حتى يُشَرَعَنَ الخطأ ثم يتحول الخطأ إلى منهج.

أنواع الأخطاء والثغرات التي طرأت خلال مسار هذه الجماعات:

- 1- أخطاء في التفكير والتأصيل
- 2- أخطاء في التنظيم والتكوين
- 3- أخطاء في الممارسة والتنفيذ

أولاً: خطأ في طريقة التفكير وتصوره للمسار (خلل التفكير):
(نمو الفكر الخارجي في الجماعات الجهادية ونمو فكر الإرجاء في الجماعات السياسية).

- 1- تَشْرُبُ أفكار التشدد إلى مناهج بعض الجهاديين: الأمر الذي انعكس في الترخص بالدماء والأموال بعد التكفير.
 - 2- غلُو بعض الجهاديين المتأخرين في التعصب المذهبي لمفهومهم عن (السلفية) وإبطال المذاهب الأربعة والتقليد المذهبي، الأمر الذي انعكس على الممارسة بحيث يجرأ الصغار على الرد والترجيح والإفتاء.
- ظهور ما يسمى أخوة المنهج بدلاً من أخوة الدين يُدلل على تنامي النظرة الحزبية لدى التيار، وأخوة المنهج نظرية تقوم على أن الجهاد يجب أن يكون سلفي الراية، وأن تكون قيادته سلفية التركيب، وأحكامه سلفية المنهج، وأن يكون كل شيء بالدليل، ولو قبلنا أن يجاهد معنا من ليس سلفياً فمن باب الحاجة، ولكن ليس لهم أن يكون لهم من القيادة شيء وإثما نقودهم لأداء فريضة الجهاد، طبعاً وليس كل السلفيات تصلح لذلك، حتى ليس كل السلفيات الجهادية تصلح، ولا يزالون يُضيقون حتى يقتصر الأمر على فئة بعينها ومرجعية بعينها وراية بعينها.

ثانياً: أخطاء وخلل في بنية جسمه وقصوره عن الأداء الصحيح (خلل البنية التنظيمية):

- 1- المشاكل التي تأتت عن السرية:
لا يمكن إنكار مبدأ السرية في العمل الإسلامي، وقد مرّ في كثير من التجارب التاريخية والسيرة النبوية خصوصاً الاجتماع في دار الأرقم والأمنيات المتبعة في الأعمال العسكرية، ولكنها سرية تُمارس على العدو المتربّص وتعمية الأخبار عن عيونه، لكننا اليوم

نلاحظ أنّها سرية تمارس على المسلمين بل حتى على أبناء التنظيم نفسه ، مما يُضعف الثقة بين أبنائه ، حتى وصل الأمر أن الدروس الشرعية تلقى بشكل سري على أبناء التنظيم. اليوم نجد أنّ العدو المسلح بوسائل الاتصال التي يستعملها القادة يستطيع اختراق السرية بسهولة وتنفيذ عمليات اغتيال من خلالها. الإغراق في السريّة في عمل الجماعات يفسح المجال أمام نسج الخيال وبث الشائعات المغرضة عن تلك الجماعات، وهذا الأمر يدفع الجمهور للتصديق لكل الأساطير والشائعات. يجب ألا تكون المرحلة السرية في الدعوة ممتدة إلى ما شاء الله، ولا بأس بسرية العمل والتنظيم عن عين العدو مع الجهر بالدعوة. 2- المشاكل التي تآتت عن البنية الهرميّة والإشكالية الأمنيّة: بنيت جميع التنظيمات الإسلاميّة السياسية والجهادية وما شابها بأسلوب هَرَمِيّ.

إن هذا الأسلوب في البناء الحركي يتمتع بصفة القوة من حيث الأحكام والسيطرة، لأنّ الأوامر تصدر والبرامج تقرر، وتنزل من الأعلى للأسفل، ثم تتابع بعض الطريقة، وترجع التقارير أو النصائح والمقترحات وغير ذلك بالعكس بمرونة وسرعة. ولكن مثل هذا البناء يتميز بالضعف الأمنيّ، وبعدم صموده للمواجهات الأمنيّة الاستخباراتية، خصوصاً بعد ما أثبتت أجهزة الأمن والحكومات الطاغوتية، ثم قوى الكفر، المحاربة للظاهرة الجهادية واستعدادها لكل أشكال البطش والتعذيب الجسدي والنفسي، وحتى لاستخدام المخدرات والعقاقير لاستخراج المعلومات! وهكذا لم يصمد معظم المعتقلين عن الاعتراف بأكثر ما لديهم من معلومات أو بكُلّها، أو بالإضافة عليها لإرضاء الذئاب الضارية من الجلاديين المتحفزين لانتزاع ذرّات المعلومات من قعر ذاكرة المعتقل، بل من تحت أظافره لو احتاج الأمر وبسلخ جلده إن لم يكف ذلك.

ثالثاً: أخطاء في أسلوب السير ورسم الخطوات غير المتناسب مع الطريق (خلل الأسلوب والعمل والممارسة):

- 1- العجز عن إمكانية وضع استراتيجيات عمل نتيجة عدم توفر معطيات ذلك لأسباب إمّا خارجية وإمّا داخلية، وتحوّل العمل لمجموعة من اليوميات والقرارات العشوائية أحياناً.
- 2- فتح معارك جانبية مع شرائح من مدارس الصحة الإسلاميّة أوقع قطاعات مختلفة من الشعب ومكوناتها السياسية أو الاجتماعيّة دون ضرورة لذلك، معارك جانبية من قبيل الإشكالات المذهبية والعقديّة والسياسية، وعدم التحكم في وحدة اتجاه المعركة تجاه العدو الأساسي المتمثل في الحكومات الطاغوتية والصائل الخارجي المتحالف معها.
- 3- الفشل في صياغة خطاب إسلاميّ يحشد التأييد الشعبي للقضايا الإسلاميّة والافتقار لفرنّ الإقناع والاقتصار في عملية الإقناع على تصنيف الناس على أساس الولاء والبراء بين مُرجئيّ ومنافقيّ ومبتدعيّ وصحواتٍ ومرتبديّ ومشروعٍ مرتدٍ.
- 4- ممارسة البراء والولاء في حدود التنظيم الحزبيّ وليس في حدود الانتساب للأمة مما يتسبب في حفر الأخاديد الفاصلة بين الجماعات والأمة والعيش في غربة الانتماء والهوية. إنّ التجارب الجهادية والسياسية الفاشلة والمتكررة تدعونا إلى أن نُزيح السفهاء عن إدارة دفة القافلة الإسلاميّة في مسيرتها نحو التحرر والخلاص، والذي كان للحزبية حصة الأسد من أسباب فشلها.

أهمّ الأزمات التي تعاني منها الجماعات الإسلاميّة عموماً

وهنا نتكلم عن الأزمات الذاتية للجماعات بعيداً عن نظريّة المؤامرة والشعور بالمظلوميّة الذي يَشيعُ في الدعاية الحزبيّة للجماعات:

أولاً: أزمة فقدان التوازن واتخاذ الرسالة عِضِينَ والخطابِ المجتزأ (أزمة في المنهج):
مشكلة الحركات الإسلاميّة المعاصرة أنّها تركّز على جانب واحد من جوانب الإسلام فتتحرف، مثل السيارة إنّ جعلت دولاباً يدور أسرع من غيره، ستتحرف عن الطريق.
لذلك نلاحظ أن كثيراً من أزمات الجماعات هو ناتج عن تضخم جانب من جوانب الدين في عمله على حساب الجوانب الأخرى ينتهي هذا التضخم إلى التآزم.
فالصوفية أصبحت حاضنة فكرية للقبورية وللإتحادية (أي من يقول بعقيدة الحلول الكفرية)،
والسلفية العلمية أصبحت حاضنة فكرية للمرجئة وللجاميّة،
المشرعنة للطواغيت،
والسلفية الجهادية أصبحت حاضنة فكرية للخوارج والدواعش.
والمخرج من هذا كلّهُ أن تركّز على كل جوانب الإسلام كافة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}.

السِّلْمُ يعني الإسلام، كما فسرها السلف، وقول الطبري في تفسيرها: "إن الله جلّ ثناؤه أمر الذين آمنوا بالدخول في العمل بشرائع الإسلام كلها". وقد بينت الآية أنّ عدم الدخول في الإسلام كافة والتعامل الاجتزائي في أخذ الفرائض هو إتباع لخطوات الشيطان.

يقول الشيخ محمد أبو يزن الشامي: أخذ بعض شرائع الإسلام وترك الباقي أو التقصير فيها، إتباع لخطوات الشيطان فيما يقابلها.

ألا ترى كيف تضخم مفهوم الذِّكْرِ عند المتصوّفة على حساب بقيّة الشرائع؟

و تضخّم مفهوم الهدي الظاهر والبدعة عند السلفية؟
و تضخّم مفهوم الجهاد عند التنظيمات الجهادية؟

و تضخم مفهوم المصلحة والسياسة الشرعية عند الإخوان؟
و مفهوم الخلافة عند التحرير؟

و بالمقابل ضموّ الجوانب الأخرى من الإسلام، أدّى إلى إتباع خطوات الشيطان لدى كل جماعة مما سبق في بقية أمورها، فوقعت في مزالق خطيرة لا تُحمد عقباهها. كل هذا يتطلب التركيز على إعادة مفهوم البعث الإسلاميّ الشامل في الأمّة، فالغائب ليس فريضة بل فرائض، والغربة ليست وصفاً لبعض الإسلام، بل لكّله ، والله أعلم.

ثانياً: (السلمية والقتال) أزمة الدعوة بلا جهادٍ والجهاد بلا دعوةٍ (أزمة في الإستراتيجية):

تقف الحركات الإسلاميّة اليوم على معادلة صعبة الحلّ ولكنها غير مستحيلة:

1- المسار السلمي في الدعوة يجعل من هذه الجماعات لقمةً سائغة للقوى الوظيفية والدولة العميقة المؤتمّرة بأوامر الخارج لإجهاض أي صحوةٍ إسلاميّة تسير نحو التمكين والاستغلاظ، فسرعان ما تجدّ من ينقضّ عليها ويرميّ بنخبتهما في السجون ويقتل من يواجهها من شبابها، مما يدفع أتباعها إلى الغلوّ أو الانكفاء على النّفس كردة فعلٍ على اليأس والإحباط، لا سيّما أنّنا نواجه عدواً متسلحاً بمراكز بحثٍ يستشعر من خلالها خطر التنظيمات الإسلاميّة على نظامه العالمي وهي في طور التشكل، ويبادر إلى ضربها في مهدها استباقياً.

2- المسار الجهاديُّ يضعها في الغالب أمام تحالفاتٍ عالمية مزودةٍ بأعتى أنواع الأسلحة الفتاكة ومواجهات غير متكافئة تنتهي بهم إلى الكهوف والجبال بعد خسارة خزائنها الاستراتيجيِّ من شبابها المجاهدين.

لو كانت الحركات الإسلامية مُتفاهمة مع بعضها لتحوّل العمل السياسي إلى جناح مشاغلةٍ للأعداء وفصل الساحات الجهادية إلى ساحات مناطقية بدلاً من ممارسة الجهاد العالمي العابر للحدود، الأمر الذي يؤدي إلى أيجاد تحالف عالميٍّ لمواجهة عدوٍّ مشتركٍ من قبل الدّول وتخلي الأمّة عن من يسلك معها مسلك التوريط بالمواجهة.

الأحزاب التي تمارس الأسلوب الجهادي تجد في المشاركات السياسية الفاشلة دليلاً دامغاً على صحّة مسلكها، كما أنّ الأحزاب التي تمارس أسلوب المشاركة السياسية تجد في التجارب الجهادية الفاشلة دليلاً على صحة مسلكها، وغالباً يقع هذا الحكم بسبب عدم دراسة طبيعة الساحة وإدراك خصوصيتها والرغبة في تعميم التجربة التي نتعصب لها، لا لصحتها ونجاحتها، بل لأنّها منسوبة إلينا.

لذلك فليكف دعاة السلمية عن توجيه اللوم لمن يحملون السلاح وليكف حملة السلاح لدعاة السلامية وليتجهوا إلى إيجاد المساحة المشتركة في تبادل الأدوار في مواجهة عدو لم يعد يميز بينهم، فالخلاف ليس خلاف حجة وبرهان وإنما خلاف ظرف وزمان.

ثالثاً: أزمة المواجهة مع الدّولة العميقة المتجدّرة (أزمة في الإستراتيجية):

الدّولة العميقة هي مؤسّسات غير مرئية، تُدير الدّولة من أسفل بعيداً عن سلطات الرئيس أو الحكومة أو البرلمان. استخدمت تركيا تعبير «الدولة العميقة» لوصف الدّولة التي لا يراها الناس ويسمعون عنها، وتُعني الجيش والقضاء والإدارة والمخابرات والأعلام والضغط الاقتصادي والمؤسّسات العلمانية القوية، وهي تدير شؤون البلاد بصرف النظر عن الحزب أو الرئيس الذي يحكم، ف «الدولة العميقة» كفيلة بإجهاض أو إضعاف تأثير الأحزاب والحكومات لأنّها مترسّخة منذ أن أسس مصطفى كمال الجمهورية التركية في عام 1924.

والمؤكّد أنّ العلاقة بين «الدولة العميقة» والديمقراطية لم تكن دائماً «يداً واحدة»، فقد أجهضت الدولة العميقة تجارب الأحزاب التي لم ترض عنها مثلما جرى عام 1997 مع حزب الرفاه التركي بقيادة الرّاحل نجم الدين أربكان ، حين كشرت «الدولة العميقة» عن أنيابها وأقالت الحكومة فيما عرف بـ «انقلاب الجيش الأبيض» الذي نجح عبر قوته السياسية - وليس بحركة آلياته - أن يُقيل الحكومة. في المقابل نجح حزب العدالة والتنمية في تحقيق المعجزة التركية المتمثلة ليس فقط في معدّلات التنمية الاقتصادية المرتفعة ، ولا في حجم الإصلاحات السياسية والديمقراطية، إنّما في ترويض جانب من هذه «الدولة العميقة» حين قدم تجربة مدنية وديمقراطية خرجت من رحم المرجعية الحضارية الإسلاميّة، وتجاوزت الاستقطاب الإسلاميّ العلماني الذي استنفر الدولة التركية العميقة على مدار عقود.

وكان الأمر ملاحظاً بشكل واضح في حالة الثورة المصرية إسقاط رأس الهرم ولكن بقيت جذور النظام ضاربة أطنابها في كل المؤسسات المهمّة (إعلام، قضاء، أمن، جيش، شركات) الأمر الذي سهّل على الدولة العميقة الالتفاف على الثورة وإعادة الشعب إلى حظيرة الطّغاة، فلم تكن الدولة العميقة عميقة إلا بمقدار سطحتنا وسذاجة الشعوب. وقد ساهمت الحالة الحزبيّة في تسهيل الالتفاف على الثورة فصوروا الأمر أنّه تحرّك ضد الإخوان وليس ضد الثورة، وخُدِع الكثير بذلك ، وهذا كان من الأخطاء الفادحة للإخوان عندما تفرّدوا بالمواجهة ولم يُحسنوا المجابهة الشعبية التي تخفف حالة الاستقطاب وتشتّت ذهنيّة الذئاب المستشرسة بتفريغ الضغط من رأس الطليعة الثورية وتوزعها على مساحة الحاضنة الشعبية.

لقد خسر الثوار جولتهم الأولى في الربيع العربي مع الأنظمة العربية لأنهم اتجهوا إلى مواجهة النتائج دون اجتثاث للأسباب وإلى تسكين العرض دون علاج المرض، وبقيت كل الأدوات تعمل

على إعادة إنتاج الطغاة لتدخل على ثورة الشعوب من الثغرات الخلفية.

- رابعاً: أزمة هذِر الطّاقات في الصراعات الجانيّة والتحديات المعجزة وترك التحديات الممكنة (أزمة في الأولويات):
- تُقسم التحديات التي تواجهها الجماعات الإسلاميّة إلى ثلاث أنواع:
- 1- تحدّي تافهٍ يواجهه أصحاب الهمم القاصرة وعشاق الاستعراضات (قتل ابن سلول تحدّي تافه)، الدخول به ينتج عنه تلقي اللوم واستثارة الحمية له مما يؤدي إلى تزعزع العقد الاجتماعي في المدينة ونتائج عكسية ومفاسده أكثر من مصالحه غالباً.
 - 2- التحدي الممكن يواجهه أصحاب الهمم العالية والنظرة العقلانيّة (قطع الطريق على القافلة في بدر تحدّي ممكن) ينتهي بالنصر غالباً.
 - 3- التحدي المعجز يواجهه المُنبِتُّون والمُتَنَبِّطون (إعلان الحرب على المشركين في مكة تحدّي معجز) ينتهي غالباً إلى اليأس والتنازل والقنوط.
- هناك بعض الجماعات لم تبلغ من التنظيم عدد الكف الواحدة ويرفع شعار فتح أمريكا وإسقاط البيت الأبيض!
- نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم لملاقاة عير لقريش ولم يجبر أحداً من أصحابه للنهوض معه ولما تغيرت إستراتيجية المواجهة من ملاقاته عير إلى حرب مع النفير لم يزوج بهم في المواجهة مكرهين ولم يتخذ القرار على مبدأ التوريط كما تفعل بعض الجماعات، وإنما أعاد الأمر إلى خيار المهاجرين والأنصار خصوصاً يجب أن تتضافر جهود الأمة لرسم خارطة إستراتيجية تحدّد الرؤية وتدرس الإمكانيات والمراحل الذي سيمرّ بها العمل، والتحديات التي تحول دون تحقيق الأهداف وكيفية تجاوز المعوّقات وتجهيز خطة بديلة عند اللزوم، وتحديد الأهداف المرحليّة والأهداف الإستراتيجية ضمن فقهٍ للسُّننِ دون مغالبةٍ أو قفزٍ أو حرقٍ للمراحل وتحديد دائرة الثوابت والمتغيرات وأن تتحوّل هذه الدّراسة إلى مشروع أمة

وليس فصيلاً أو تيّارٍ بتبسيطها وتقريبها للأذهان وللعوام من أجل أن يكون تبنيها من الأمة واستثمار كلّ الطاقات الساكنة والمعطّلة والمهدرة في مواجهات بينيّة، وتوجيهها إلى معركة نهوضٍ حضاريٍّ لا تستثني أي جانبٍ من جوانب الصّراع، ولا تستثني أي طاقة من طاقات الأمة، ويتم ذلك من خلال توظيف كلّ جماعةٍ في الثّغر الذي تميّزُ به، واعتبار ما غالت به هو تميّزٌ بحيث يتم ذلك بتحركٍ منسجم ومتناغم ويترك للتفاعل الحركي موازنة هذه الجوانب التي تطرفت بها كل جماعة حتى تعيدها إلى نصاب الاعتدال والوسطية، فقد ثبت بالتجربة والبرهان أنّ الخطاب البسيط والواضح هو الأكثر تأثيراً في الرأي العام وحشداً للتأييد الشعبي.

خامساً: أزمة الحلول الإلهامية والافتقار لمراكز الأبحاث (أزمة إدراك المناط):

العقلية القياسية في مثل هذه الأحوال لا تُجدي نفعاً، لأنّها تعطي حلاً واحداً لمشاكل مُتعدّدة نخالها متشابهة دون أن تُلحظ الفروق الدّقيقة، فيكون كالعطار الذي يصف دواءً واحداً لمئات العِلل لأنّ الحرارة مرتفعة وهو يجهل منشأها فينتجه لعلاج العَرَض دون المرض، ويجعل من الجسد حقلاً للتجريب، لذلك لا يمكن طرح أي حلٍّ قبل تشخيص المشكلة بشكلٍ علمي معتمد على الدراسات والأرقام والمعطيات وبنظرة شمولية، أمّا الانطباعات والرّجْم بالغيب والافتئات على الأمة فلا ينفع في المسائل العظام، بل قد يُضاعف المشكلة.

بعض الجماعات ممن ليس لديها مرجعيّة علمية راسخة تتعامل في علاج النوازل بالهواجس والقياس على تجاربها الفاشلة الخاصة بها.

هناك نقص حادّ في مراكز الأبحاث والدراسات التي تزود الحركة الإسلاميّة بتصويرٍ دقيقٍ للواقع المفعم بالنوازل حيث القضايا

المستجدة، ناهيك أننا لا نتعامل مع لغة الرقم، ونكتفي بالانطباع الشخصي في التقدير بعيداً عن الإحصاء واستطلاعات الرأي، وبالهامات الفقيه والسياسي المغامر! يجب أن ينزع قرار الإفتاء في مسائل عظيمة وخطير مثل قضية التمكين والاستضعاف من دائرة الإفتاء المشيخي إلى مراكز أبحاث مختصة في هذا العصر الذي لم تعد فيه معادلة القوة تحسب بالمعادلة البسيطة وفق حجم الأعداد وإنما صارت معادلة معقدة لدخول التكنولوجيا كمرجح كبير في ميزان القوة البرلمانات الغربية ومجالس الشيوخ لم تعد هي صانعة القرار السياسي في الغرب وانتقل الأمر إلى مراكز الدراسات التي يعمل بها آلاف المختصين والكفاءات وبقي لهذه المجالس دور الصياغة والإخراج.

سادساً: أزمة انحراف البوصلة عن المسار وتضييع الهدف المقدر إلى الهدف المُعجَز (أزمة الهدف): بدأت الثورة السورية بشعار بسيطٍ ومُجمَعٍ عليه من السوريين: "إسقاط النظام".

حتى جاء المزايدون والمنبثون ليحرفوا المسار عن الهدف المتفق عليه إلى أهدافٍ تتناسب مع مشاريعهم السياسية والأيدلوجية، وأفهموا البسطاء ممّا أنّ هدف إسقاط النظام هدفٌ تافهٌ مخالفٌ لشرع الله، وطرحوا البديل وهو أهداف متعددة تبعاً لتعدّد الأحزاب التي تطرحها، من إقامة الدولة الإسلامية وتبني الجهاد العالمي، وإسقاط طواغيت العالم وقيام الخلافة الراشدة، وغالباً ما كانت تُطرَحُ هذه الأمور من المخترقين، وبذلك تمّ القفز على الهدف المرحليّ والممكن، إلى الأهداف الإستراتيجية المعجزة في حدود الإمكانيات، الأمر الذي أوجد بذور الصراع بين أبناء الثورة الواحدة، وانتهى بالقتال.

إنّ انعدام الرؤية لدى هذه الأحزاب جعلتها تنظر إلى إسقاط النظام

على أنّه هدف غير شرعي، وبذلك تقوم هذه الأحزاب بممارسة الابتزاز الدينيّ على شعوبٍ مسلمة تنساق لكلّ ما يثير فيها الحسّ الدينيّ، فأعطوا لوجهة نظرهم بُعداً شرعيّاً، وليت الأمر يتوقف هنا، بل بُعداً عقديّاً بحيث يكون المخالفُ منزلقاً في مزالق الكفر والمروق!

ولو تأملوا قليلاً لعلموا أنّ إسقاط النظام ليس إسقاط حاكم ، إنّ إسقاط النظام هو إسقاط منظومته الأمنيّة والإعلامية والمشخية والاقتصاديّة والفكرية ، وذلك لا يتم إلا بإرجاع الهويّة المسلوبة للسوريين وعودة الإسلام بدون مزايدات ، وهذا يتوقف على مدى استيعاب هذه الأحزاب لأبعاد الصراع ، كان من الممكن لهؤلاء الممنهجين أن يُعزّزوا هدف إسقاط النظام بإعطائه بُعداً حضارياً وفكرياً ، ولكن شهوة التشبّع بما لم نعطي تأبى علينا أن نتصور صوابيّة مسار العامّة وخطأ ما عندنا نحن النخبة .

ضبابية الرؤية لأصول الشريعة ومقاصدها العليا وانعدام الحدّ الفاصل بين الثوابت والمتغيرات تجعل المواقف مضطربة وغير منضبطة في تحديد الأهداف، وغيابُ مبدأ الأولويّات في اختيار الهدف القريب المرحلي وتمييزه عن الهدف البعيد والاستراتيجيّ وعدم التمييز بين المُهم والأهمّ والممكن والمعجز، هذه العوامل وغيرها كفيلة بصناعة حالة غثائية يتضخم فيها الكمّ على حساب النوع، ويسري إليها الوهن وفوضى عارمة يصعب على النخب حلّلتها بدون بناء رأي عام يدعم رؤية هذه النخبة ويوليها ثقته ويقف معها لإزاحة هذه الحالة الغثائية وتحويل الحالة الغثائية إلى مرحلة تدافع سنّيّ يُمهّد لمرحلة تمكين سنني وفق ضوابط الشريعة والنواميس الرّبانيّة في الوراثة والتمكين والاستخلاف.

سابعاً: أزمة فقد الحاضنة بين الفعل ورد الفعل (أزمة في الإدارة):

1- احتقار الإرادة الشعبية مقدّمة لاستعدادها

2- تعامل أغلب الحركات الإسلامية مع الحاضنة هو تعامل الوصي على القاصر، أو تتعامل على أنّها صاحبة حق إلهي في اقتياد الأمة، مما يكرّس مفهوم الطبقية لا بالمفهوم الاقتصادي وإنما بالمفهوم التمايزي التّخويي .

3- إذا أرادت الحركات الإسلامية من الشعوب أن تتبنى قضيتها يلزم على هذه الحركات أن تتبنى قضايا الشعوب أولاً من غير تمنن ولا أذى

4- للأسف تعامل الجهاديون مع قضية كسب الحاضنة الشعبية ضمن منطق الفعل ورد الفعل المبالغ فيه، ففي حين انبطحت بعض القوى المحسوبة على الإسلام السياسي لحملة الديمقراطية واستسلموا بشكل كامل لرياحها الهوجاء التي عصفت بالعالم منذ قرن وحتى الآن، كان رد فعل الجهاديين هو الرفض الكامل للاعتراف بأهمية البعد الشعبي وتماسك الصف الداخلي في إقامة الدولة التي ينشدونها ، واعتبروا مجرد الحديث عن الحاضنة ضرباً من الانبطاح لفكرة الديمقراطية، وبدؤوا يؤسسون لفكر سياسي وفقه غريب يقوم على "إمارة المتغلب" و"إدارة التوحش" ، وصارت التنظيمات هي إطار عملهم المفضل الذي حافظوا عليه حتى في زمن الثورات والربيع العربي على الرغم من ضرره البالغ وربّما القاتل على الثورات ذات الطابع الشعبي الجماهيري، مع أنّ إمارة المتغلب تعامل الفقهاء الذين أطروا لها كأمر واقع فُرضَ على المسلمين، ولم تكن أبداً من صفات الدولة الراشدة على منهاج النبوة التي ينبغي السعي إليها، بل نصّ الفقهاء الذين صححوا إمارة المتغلب أنّه متى تم تيسر خلع المتغلب بدون فساد ودماء والإتيان بخليفة عن طريق الشورى فإنّه يجب نزع المتغلب حينها ، فكيف يكون المتغلب هو ما يصبو إليه الجهاديون ويحلمون به وأما "إدارة التوحش" فهو عبارة عن أدبيات الحرب الشيوعية بصبغة إسلامية ولا تحمل فكراً ينير لدولة راشدة.

الذي أراه أنّ مكان كسب الحاضنة الشعبيّة في العمل الإسلاميّ ليس كونها مصدرّاً للشرعية كما في الديمقراطية، بل أراها سبباً مادياً لا يمكن الاستغناء عنه شأنها في ذلك شأن السلاح والمال الذي لا تستغني عنه حركة جهادية، بل أراها أهمّ من ذلك كله. الحاضنة الشعبية مثل الجسم البشري، الجماعات هي أعضاء منها، فالمتجانس يذوب في منظومته ويعتبر أصليّاً، والذي يأبى الدخول في منظومة الجسم مع عدم الإصرار على تسييره وفق قانونه هو فحسب، يُعتبر جسيماً دخيلاً يَلْفُظُه بعنف أو يحصل انقلاب غير صحي يُفضي إلى خسائر كبيرة على الكل!

هذا من تشابهِ السُّنن الكونيّة في المواد والأمم، لا يمكن أن نتوقع من جماعة إسلاميّة منظومة الفقه السياسي لديها قائمة على إمارة المتغلب وبيعة الإكراه وتهزل الشورى وتضييق نطاق أهل الحلّ والعقد وتأييد السلطة ودمج السلطات أن تصطلح مع الحاضنة الشعبية وأن لا تكون إقصائية، وأن لا تزرع بذور الاقتتال الداخلي في الصف الإسلاميّ.

من هنا نعلم أن ليس كل من حمل السلاح على المجاهدين يحمله على الإسلام، وهذا ما يحاول البعض تصويره، بل تسبب بذلك أقوام أجزموا بحق الناس باسم الجهاد وسكت عنهم الآخرون بحجّة عدم شقّ الصّف، فنتج عن هذا السكوت أن شرعوا لهم تجاوزاتهم، حتى تحولت التجاوزات إلى مناهج يستدل لها.

ثامناً: أزمة المصطلحات (أزمة في الفكر):

- استعمال المصطلحات الإسلاميّة الكبرى على معطيات فارغة المضمون هزلٌ مرفوض.
- إنّ الحضارات الغالبة هي من تقوم بإنتاج المصطلحات وتصديرها وفرضها على الأمم المغلوبة دون أن يدرك المهزومون مضامين هذه المصطلحات.

- بدأ سرّ الاستخلاف لآدم عليه السلام بضبط المصطلحات، قال تعالى:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)

- إنّ ضبط الأسماء في دلالتها على المُسمّيات مفتاح ضبط العلوم والمعارف، ولا يُمكن لعلمٍ أن يستقيم إلا بضبط مصطلحاته، وكثير من الأحكام الشرعية تندّ عن الصواب بسبب الخلط في هذا الأمر.

- لقد بدأ بنو إسرائيل بتزوير حقائق الدين بإنزال أسماء جديدة على مسميات منضبطة للتذرع إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال، سَمِعْتُ جَايْرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ قَالَ : " قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا ، أَجْمَلُوهُ ، ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ "

ولو كانت تسمية الأوهام بالحقائق يعطيها الشرعية لكان عبّادُ الأصنام محقين في عبادتها بعدما سموها آلهة ، ولكنّ الله تعالى أبطل زيفهم :

{ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (22) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۗ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ } (النجم)

لم يستعمل القرآن الكريم مسمى يثرب إلا مرّة واحدة على لسان المنافقين:

{ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا } الأحزاب .

مما يدلُّ أن المنافقين يتحاشون استعمال المفاهيم الإسلاميّة والاستعاضة عنها بمفاهيم جاهلية.

- أمرنا تبارك وتعالى بمخالفة أهل الكتاب باستخدام كلمة "انظُرْنَا" بدلاً من كلمتهم "راعِنَا"، بالرغم من أنّ المعنى اللغوي المحض مشترك بين الكلمتين، فقد قال عز من قائل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَتَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (البقرة:104)

فكيف بالله عليكم، حين يتناقض المدلول كلياً، بين المصطلح المؤصل شرعاً ولغة، والمصطلح الواقد من بيئة لا ترجو لله وقاراً، بل من مناخ تخصص في صكّ مفاهيم ومصطلحات لتزوير الحقائق والعقول؟

الاعتبار من التجارب السابقة يُرشدنا إلى الحكم في المواقف الحاضرة، ولكننا أمة مصابة في ذاكرتها.

وهنا يبدو خلطٌ آخر عند الكثير في فهم القاعدة التي تعارف عليها العلماء (لا مُشاحّة في الاصطلاح).

فهل فهم هذه القاعدة على إطلاقها فهل يُجوّز لنا أن نستعيض عن المصطلحات الشرعية المنصوص عليها بأسماء من عندنا نصطلح عليها ونقول لا مشاحّة في الأمر، مع المخالفة للوضع اللغويّ أو العُرف العام والأصول الشرعية؟

فبَيْعَةُ طَائِفَةٍ بِذَعِيَّةٍ مَارِقَةٍ سَمَّتْ نَفْسَهَا بِدَوْلَةِ الْخِلَافَةِ وَإِمَارَةِ الْمُؤْمِنِينَ مَخَالَفَةً شَرِيعَةً.

وهنا لا بُدّ لنا أن نميّز بين الاسم الشرعيّ والوجود الكوني ، الخلافة والدولة الإسلاميّة اسم شرعي ، ولكن هل وُجِدَ المسمى الكونيّ حتى ينزل عليه الحكم بشروطه وخصائصه المادية؟

هل تسمية الشجر جبلاً يُغَيِّر من حقيقتها؟ وما يُغني حزب الشيطان أن ادّعى نفسه حزب الله!

إنّهُ لا يعدوا تشويهاً للحقيقة وقلباً للمفاهيم فحسب. لقد جاء في السنة النبوية النّهي عن التلاعب بالمسمّيات:

عن أبي هريرة (لا يقل أحدكم للعنب الكرم ، إنّما الكرم قلب المسلم).

إِنَّ خِلاصَةَ خِلاَفِنَا مَعَ مُدَّعِيِ الْخِلاَفَةِ أَنَّهُمْ سَمَّوْا أَوْهَامَهُمْ بِتَسْمِيَّاتٍ شَرَعِيَّةٍ، وَأَرَادُوا أَنْ يُلْزَمُونَا بِلِوَاظِمِ وَجُودِ الْخِلاَفَةِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْبَيْعَةِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَتَنْفِيذِ أَحْكَامِ الْإِمَامَةِ عَلَى بَاقِي الْفِصَائِلِ.

وأما دعوى التمكين التي يدعونها فزيفٌ باطلٌ، وقياسٌ دولتهم على دولة المدينة من حيث الجغرافيا والعدد والعُدَّة التي بحوزتهم فمُغالطةٌ باطلةٌ لاتنطلي إلا على أحمق، لأنَّ الأصل في التمكين أن تُقارن بين ما تمتلك من قوَّةٍ وأسباب وبين المحيط المصارع لك، وهذا هو فحوى التَّمكين، فالتمكين ليس محددًا شرعيًّا، وإنَّما معطياتٌ واقعيةٌ.

إنَّ تلاعبهم بالمصطلحات يُذَكِّرُكَ بِذَلِكَ الطَّالِبِ الْمُحْتَالِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَتَقَدَّمَ لِامْتِحَانِ الرَّسْمِ وَهُوَ لَا يُحْسِنُهُ، فَطَلَى الصَّفْحَةَ بِالسَّوَادِ الْقَاتِمِ، فَلَمَّا سَأَلَهُ الْمُدْرِّسُ عَنْ مَعْنَى رَسْمَتِهِ قَالَ لَهُ أَنَّهُ غُرَابٌ يَطِيرُ فِي اللَّيْلِ!

نُتَوَّهُ أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْزَابِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَاتَ يُعْطِي لِلْمَفَاهِيمِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَضَامِينًا مَا يَتَعَارَفُ عَلَيْهِ الْعَوَامُ، مِثْلَ تَوْصِيْفِ حَدِّ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ عَلَى مَا يَطْلُقُهُ الْعَوَامُ عَلَى الْفَسَادِ، وَكَمَا يُفَسِّرُ بَعْضُ الْأَحْزَابِ الرَّايَةَ الْعَمِيَّةَ بِالْخِرْقَةِ الْقِمَاشِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِالْفِصَائِلِ، وَلَكِنهَا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ الْغَايَةِ مِنَ الْقِتَالِ، أَوْ كَتَوَصِيْفِ الْمَدَارَاةِ وَالنَّقِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ مِمَّنْ يُخَافُ مِنْهُمْ ضَرَرٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَوَلَاءٌ لِلْكَفَّارِ ثُمَّ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ التَّكْفِيرُ.

تاسعاً: عُقْدَةُ الْحَزْبِيَّةِ وَأَزْمَةُ التَّحَرُّبِ (عُقْدَةُ الْعُقَدِ وَمَوْلِدُ الْأَزْمَاتِ):
- الْعُقْدَةُ الْحَزْبِيَّةُ وَالْحَمِيَّةُ الْحَزْبِيَّةُ لَا تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنِ الْحَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْعَشَائِرِيَّةِ، الْمُتَحَرِّبُونَ قِبَائِلُهُمْ الْيَوْمَ هِيَ أَحْزَابُهُمْ، لِذَلِكَ نَجِدُهَا تَنْتِجُ كُلَّ مَا تَنْتِجُهُ الْعَصَبِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ مِنَ التَّنَاصُرِ عَلَى الْبَاطِلِ وَالنَّدِّ عَنِ الْإِنْصَافِ لِلْمُخَالَفِ وَالشُّعُورِ بِالِاسْتِعْلَاءِ عَلَى الْغَيْرِ.
- الْحَزْبِيَّةُ أَمُ الْأَمْرَاضِ وَمَوْلِدُ الْأَزْمَاتِ.

- التحزّب على جزء من الدين وهدر الأجزاء الأخرى من سنن الأمم البائدة ومدعاة للاحتراب الداخلي بين الجماعات المتحرّبة، قال تعالى: { فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ }.

وهذا من معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرٍ ضَبَّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْهَؤُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ "فَمَنْ؟" [البخاري].

- الحزبيّة هي من أهمّ الأمراض التي سرت إلينا من الأمم السالفة، وبعدها تظهر الآفات الناتجة عن علّة التحزّب من التمنهج والتعصّب والإقصاء وحصر الحق بالحزب وادّعاء الحق المطلق وتبرير الأخطاء بالمسحة الكربلائية.

- أولّ حالات الخصومة بين المجتمع المسلم والجماعات الإسلاميّة تبدأ من تسمية الجماعة:

إذا كنت من الإخوان المسلمين لا يعني أن غيرك من إخوان الشياطين!

وإذا كنت من أنصار الشريعة لا يعني أنّ غيركم أعداء للشريعة!
وإذا كنت من جماعة التوحيد لا يعني أنّ غيركم من جماعة الشرك!
وإذا كنت من جماعة الجهاد فلا يعني أنّ غيركم من جماعة الخذلان!

- إنّ التربية الحزبيّة تتضخم في بداية إنشاء التنظيم لكسب الولاء وترسيخ القاعدة الصلبة، ولكن عندما تتجذّر تصبح من أكبر العوائق في مشروع توحيد الأمة.

- حالة الوعي في الأمة تبقى هي حالات فردية وحالات اللاوعي هي الحالات الجمعية.

- لذلك على الأمة أن تبحث عن عُلمائها قبل أن تبحث عن أحزابها.

- سقوف الأحزاب متدنية لا يمكن أن تستوعب القامات العالية لذلك، لم يتعايش كثير من العلماء في الأجواء الحزبية وآثروا العمل خارجها، فكان المجال للمنظرين المتعصبين الذين يُتقنون فنّ الدعاية السياسيّة والتبشير بمبادئ الحزب، في هذه الأجواء التعصبية يتعملق الأقسام ويُقرّم العمالقة ويسقط الرّموز.

لو كان المنظرون للجماعات الإسلاميّة يُرتجى منهم حلّ مشاكل الأمة لحلّوا مشاكل الأحزاب الإسلاميّة فيما بينها البين.

منشأ التحزّب:

قال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: 52]

وقال تعالى: {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرِحُونَ} [المؤمنون 53]

جاء بفاء التعقيب لإفادة أنّ الأمم لم يتريّثوا عقب تبليغ الرّسل إيّاهم أنّ تقطعوا أمرهم بينهم.

المعنى: قطعوا أمرهم بينهم قطعاً كثيرة، أي تفرقوا على نحلّ كثيرة فجعل كلّ فريق منهم لنفسه ديناً مجتزأً من أصل الدّين أو بالتحريف والتبديل.

{أمرهم}: دينهم الذي أمرهم الله تعالى به.

{زُبُرًا}: بضم الزاي وفتح الموحدة وهو جمع زُبرة بمعنى قطعة.

جملة {كلّ حزب بما لديهم فرحون}: تذييل لما قبلها، لأنّ التقطع يقتضي التحزّب، فذيل بأنّ كلّ فريق منهم فرحٌ بدينه، ففي الكلام صفة محذوفة لـ {حزب}، أي كل حزب منهم، بدلالة المقام.

والفرح: شدة المسرّة، أي راضون جذّلون بأنهم اتخذوا طريقهم في الدّين. والمعنى: أنهم فرحون بدينهم عن غير دليل ولا تبصّر بل لمجرد العكوف على المعتاد. وذلك يؤمى إليه {لديهم} المُقتضي

أنّه متقرّرٌ بينهم من قبل -أي بالدين الذي هو لديهم- فهم لا يرضون على من خالفهم ويُعادونه، وذلك يُفضي إلى التفريق والتخاذل بين الأمة الواحدة وهو خلاف مرادِ الله، ولذلك ذَيَّلَ به قوله: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}.

الأُمَّة في مفهوم المتحزبين قد لا تتجاوز الأعضاء المنتسبين لحزبهم، لذلك ترى في أدبياتهم أنه لا زال للأحاديث التي تحضّر على الاعتصام بالجماعة وفضلها واجتماع الأمة والتناصر والموالاتة كلها يُنزلونها على جماعتهم.

عاشراً: أزمة التنظيم والاختراق الفكريّ لإيديولوجيا الأحزاب (أزمة في الفكر):

الاختراق الذي أصاب أمّتنا لم يتوقف عند صفوف القيادات بل تعدّاه إلى المناهج الفكرية والعقدية ، فظهور الفتاوى المخابراتية هي نتيجة طبيعية للاختراق التنظيمي والفكري. غالباً ما يعتمد المخترقون في إفسادنا على تأصيل الفتاوى الشاذة واستحياء الفقه الميّت وجعله الأصل لتأجيج النزاعات الخامدة. كانت ظاهرة عبد الله بن سبأ أول حالة اختراق للفكر الإسلاميّ، وقد تَفَدَّ من قضيةٍ تُثيرُ عاطفة المسلمين، الغلوّ في محبة آل البيت، كما يَنفُذُ الغلاة من قضية العقيدة الصافية وتصحيح العقيدة الباطلة.

لذلك عند الإصابة بالاختراق الفكريّ لن يجدي الإصلاح التنظيمي نفعاً، لأنّ أدوات إنتاج الخلل موصولة وخفيّة. ميّزة الإسلام أنّ الاختراق الفكريّ لا يمتدّ إلى نصوصه ولكّنه يبقى في دائرة الفهم، وغالباً ما تتشكل منه طائفة مبتدعة، لذلك تجد أنّ أصول تشكُّل الفِرَق الضّالة هو اختراق فكري، رغم كلّ السريّة التي تحيط نفسها بها بعض الجماعات الإسلاميّة تظل مكشوفة للغرب وغامضة بالنسبة لنا، وهذا يعكس خلل في طريقة التجنيد

والانضمام وتبوء المراكز القيادية، ويعكس مدى تغلغل الغرب في هذه التنظيمات.

الاختراق الفكري عندما تتلقى منه الدين والفقه ويتصدر مركز التوجيه والإرشاد يجعلك تُنْفِذُ العمالة للخصوم دون أن تعرف أنك عميل، بل تعتقد أنك تدينُ الله تعالى بذلك، ولزُبَّ فِكْرِ فاق فنكته أسلحة الدمار الشامل.

وغالباً ما تجد أن العناصر المخترقة للتنظيم تتبنى خطاباً متشدداً أو متعصباً للأيدولوجية الحزبية ومزايدة بها، مما يُكسبها ثقة العاطفين ويُسهّل مرورها للصفوف الأولى ومركز اتخاذ القرار من التنظيم وصولاً إلى اختطاف التنظيم إلى المسار المجهول. عندما يستطيع أصحاب المصالح المتعارضة اختراق تنظيم ما تبدأ الصراعات الداخلية في التنظيم تبعاً لتناقض الأجندات المتبوعة إلى أن ينتهي أمرها بالفناء بعد أن يتحول إلى شركة مخابرات متعددة الجنسيات، وينتهي من حرق الطاقات الفتية للشباب المسلم في أتون المشروع الإسلامي الموهوم بعد صرفهم عن المشروع الرشيد، ذلك أن الأغرار كلما رأوا مجسماً مغلفاً بمشروع إسلامي قالوا (هذا ربي هذا أكبر) فإذا أفل قالوا لا نحب الآفلين.

الحادي عشر: اختراق القاعدة الصلبة في التنظيمات ومن ثم خطفها (أزمة في التنظيم):

أي تنظيم حتى يضمن استمراره يجب أن يتشكل من القاعدة الصلبة أولاً، والدائرة المرنة، ولبناء القاعدة الصلبة وسائل لا بُدّ منها من توحيد مصدر التلقّي وتكثيف التربية والإعداد الإيماني والعزلة عن الآبار التربوية المسمّمة لأجل توحيد مصدر التلقّي والتوقّي من التهوؤك والصبر على الابتلاءات وتحقيق اللحمة والأخوة بين أفرادها، لا بُدّ من التربية، والتربية غالباً ما تكون في أتون المحن في فرن الابتلاء؛ لأنّ الإنسان عندما يدخل هذا الدين أو يبدأ يكون لينةً لينةً لا بُدّ أن توضع هذه اللبنة في الفرن حتى تجفّ، وإلا لا يمكن

وضعها في بناء كبير عظيم لأنّ فوقها سيكون ثِقْلٌ كبير، فلا بُدّ أن تكون صلابة خاصّة أحجارُ الزوايا والأعمدة، والطلائع الأولى دائماً هي الأعمدة للدعوات والمجتمعات، ولكن تحت ضغط المنافسة بين الحركات الإسلاميّة في حشد الأتباع وسرعة الانتشار وتكثير الأعداد استعاض كثيرٌ منها عن تربية العلماء والتأصيل العلميّ بالمشافهة والتلقي وخوض التجارب التي تصقل النفس والقلب، الأمر الذي يأخذ وقتاً طويلاً، إلى تربية الإصدارات المرئية والصوتية التي تعتمد على المؤثرات الصوتية والإثارة البصرية وتُهيّجُ العواطف لتلبية الوجبات السريعة للمُنبئيين على حساب التربية والإعداد، هذه النوعيّة من الأتباع لا يمكن أن تشكل القاعدة الصلبة التي تقوم عليها الأمّة والتي تثبت أمام فتن الشهوات أو الشبهات ، بل ربّما يتحوّل الكثير منها إلى خنجرٍ في خاصرة الأمّة، وما حلت مصيبة على كاهل الأمّة إلا من هؤلاء.

والمصيبة الكبرى عندما يصل أمثال هؤلاء إلى الصّفّ الأول بعد تَنْحِيَةِ الآباء المؤسّسين وخطفِ التنظيم ، لتتحوّل الجماعة إلى كتلة مرنة قابلة للاختراق حتى من الخصوم بعد أن فقدت جهازها المناعي بالانفصال عن العلماء والعلم.

الثاني عشر: أزمة في التفكير (تعطيل فريضة الاعتبار والاستنباط):

الأحزاب تشكل ثلاثيات فكرية لأنّها تعمل ضمن إطارات محددة ومناهج تصل إلى القداسة، فكل محاولة للمناقشة تنظر إليها بعين الرّيبة والسماح بذلك سيخلق جماعات داخل الجماعة الواحدة لذلك نجد فيها أنواع من هذه العقليات:

1- العقلية القياسيّة:

عقبة كبيرة أمام الحلول الإبداعية لأنّها تبحث دائماً عن نقاط التشابه بين التجارب، فحالتها يشبه حال العطار الذي يَصِفُ دواءً واحداً لكل العِلَلِ لمظاهر التشابه بينها من ارتفاع الحرارة وغيرها، لأنّ القياس الأصوليّ مبنيٌّ على فرع وأصل وحكم وعلّة مشتركة،

فيلحق الفرع بالأصل للعلّة المشتركة، هذا النوع من العقلية جيدة للتعايش في الأجواء الحزبيّة التي تسعى إلى تعميم الصبغة واللون بفكر واحد. ولكنها لا تنفع في مواجهات التحديات ذات المنشأ المركب ومعرفة النّسب التي تتشكل منها الأزمة الكلية من أجل أن نحدد نسب العلاج على ضوء معرفة مركب الأزمة فلا نتطرف في مواجهة أزمة وترك أخرى لما نتوهمه أنها أحادية التركيب العقلية القياسية ليست سوى أحد مقومات النظر ولعلها آخرها ترتيبا ما يعكس فهم السلف لحجمها دون استغراقها نظر الباحث.

ولعلها في النظر للعبرة تصبح متفقة وطبيعة التاريخ الذي يكرر نفسه وإلا ما كانت دعوة القرآن للسير في الأرض حجرا وبشرا للاعتبار والعظة ما يؤكد التشابه والتكرار في التجارب والطبائع وحقائق السنن. في مشهدها العام مع بعض الخصوصيات المستخفية.

2- وهناك العقلية الفُروقية:

التي تغرق في التماس نقاط الاختلاف بين التجارب والحوادث فيتعذر عند ذلك الاستفادة من التجارب السالفة، وهذا خللٌ واضح لأنّ البيان القرآنيّ يسرد الكثير من القصص التي هي محلّ اعتبار. وقد أطنب بهذا العلم - علم الفروق - الإمام القرافي المالكي (في كتابه الفروق)، مثل هذه العقلية لا يمكن أن تعيش في الأجواء الحزبيّة أبدا ولا يمكن الاستفادة منها إلا في لفت الأنظار لأوجه الاختلاف بين مشكلة وأخرى حتى لا نقع في خطأ تعميم العلاج والحكم.

دائما الجماعة المنتفعة من التجربة تميل إلى القياس عليها والمتضررة منها تميل إلى تبين الفروق والاختلاف في الثورات العربية كانت عقلية الشعوب عقلية قياسية في ثوراتها ومحاكاتها للثورة التونسية وظنوا إن الأمر سينتهي في كل الدول كما هو في تونس وكانت عقلية الأنظمة عقلية فروقية (مصر ليست تونس

وليبيا ليست مصر وسوريا ليست ليبيا) هذه كلمات شاعت في خطابات الأنظمة في مواجهة الثورات ولكن سرعا ما تبين لأصحاب البصائر نقاط تشابه ونقاط اختلاف خصوصا في البعد الجيو سياسي وهذا ما تدركه العقلية الاستحسانية على طريقة الأصوليين.

3- هناك العقلية الاستحسانية:

التي رفضها أهل القياس وقالوا من استحسن فقد شرّع، ولعلمهم قصدوا الاستحسان الذي لا يشهد له دليل. العقلية الاستحسانية تقوم على حصر أوجه الشبه مع أوجه الاختلاف في القضية وبناء الحكم بموجب هذه المقارنة. الأصوليون يعرفون الاستحسان بأنه: "العُدولُ عن مُقتضى قياسٍ جَلِيٍّ إلى مُقتضى قياسٍ خفيٍّ لعلّةٍ تَصَرَّفُ القياس عن ظاهره" فلا هي تبني حكمها على القياس والشبه ولا على الاختلاف والفرق. لذلك جاءت الشريعة بالعدل، الشريعة لا تجمع بين مختلفين ولا تفرق بين متشابهين. العقلية الاستحسانية تنظر إلى الجزء المخفي من الحقيقة أكثر من الجزء الظاهر منها، العقلية الاستحسانية تنقب عن العناصر التي تشكل الأزمة وفق تحديد نسبي. هذه العقلية ممكن أن نستفيد منها في مشروع الاصطفاف السنّي الذي لا يعني بالضرورة غمط كل حسنة للأحزاب وتضخيم كل سيئة، ولكن ننظر إليها بنظرة متوازنة تقارب بين الميزات التي يعمل على تعزيزها وبين العلل التي يعمل على تلافيتها. وعندما تكتمل للمجتهد أو الباحث ميزة كل عقلية فقد اكتملت له أدوات النظر والترجيح ومؤهلات ترتيب الأولويات وتقدير الموازنات وبالتالي النظر في المآلات، فإذا توفر لأمة ذلك أفراداً وجماعات فإن منطق تغليب المصلحة المعتبرة يصبح حاكماً دون اصطدام يُخِلُّ بغاية الشريعة ائتلافا لا اختلافا، اعتصاما لا تفرقا.

وهنا تصبح العقلية الاستحسانية هي ما ينبغي تربية الأمة عليها
حِسّاً وعقلاً، جمعاً بين ميزات وتحصيلاً لامتيازات كل عقلية،
تأهيلاً للأمة نحو الصعود يترتب عليه إن شاء الله شهود حضاري.

ضوابط للتفكير تضبط فهم الواقع :
الخطأ القاتل في تفكيرنا يأتي من:

- 1- نسف القاعدة بالمثال الشاذ (ترك الجهاد لوجود مجاهدين سيئين).
- 2- تأصيل القاعدة بمثال شاذ (الخوارج على حق لأنهم يخشعون في صلاتهم أو لأنهم شجعان في قتالهم).
- 3- الالتزام بقواعد التفكير الشرعية.
- 4- إذا كنت مدّعياً فالدليل، أو كنت ناقلًا فالصحة.
- 5- لا يستلزم من عدم الوجدان عدم الوجود.
- 6- ما ثبت بعلة يزول بزوالها، فالحكم يدور مع علته (الجهاد عبادة مَعَلَّة، وليست تعبدية لا حكمة ولا علة فيها) لذلك تجد أنّ الظاهرية سمة للتفكير الخارجي فهم أبعد الناس عن التعليل والقياس.

أخطر ما تمارسه الأحزاب هو التصلبُ الفكريُّ وإعطاء المنهج المستخلص من اجتهادات المنظرين درجة القطع وإدخاله في دائرة العقيدة، والتبرّم والتسفيه لكل رأيٍ مخالفٍ، لذلك على هذه الأحزاب أن تحذر على نفسها من مطبّين خطيرين في تقرير مناهجها:

- 1- القطع حيث أن الأدلة لا تسعف إلا للشك أو للظن على أقصى تقدير (لذلك يجعلون من اجتهاداتهم ثوابت يقينية)
- 2- الشك والظن حيث يجب القطع وإعطاء المتيقن حكم المظنون. هنا يلزمنا تشكيل العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفريعية.

عدم الاكتراث ببناء العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفريعية المغرقة بالفروع، تسبب في تفتيت الوحدة

الثقافية للعاملين في الحركة الإسلامية فهم عرضة للاختصاص أمام أئمة اختلاف فرعي الأمر الذي أدخلنا في فوضى التنظير والإسقاط.

الثالث عشر: أزمة في غياب الرؤية (أزمة في التخطيط):

حتى تعود الأمة الإسلامية إلى مقام الأستاذية يجب أن تمتلك الرؤية، والرؤية تتشكل من ثلاث قراءات:

وقد ابتليت هذه الأمة بالرؤية:

- الحولاء، كمن تركوا أعداء الأمة ودخلوا في صراعات داخلية مع الجماعات الإسلامية التي يرونها عائق أمام مشروعهم.
- والرؤية القاصرة التي ترى المكاسب الآنية وتغفل عن الخسارة الإستراتيجية.

- والرؤية العمياء التي تعتمد على حواس غيرها في رؤية طريقها كمن يرى قضايا الأمة بعيون الغربيين.

هذا الحول والقصور والعمى الفكري لا بدّ من علاجه بـ:

- 1- قراءة السنن الثابتة في النهوض والانحطاط الحضاري، قال تعالى: **(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولَىٰ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَا تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا)** (فاطر 43)، والسنن قوانين صارمة لا تجامل ولا تتبدل، تعطيك تصور حتمياً وواضحاً عن نهوض الحضارات والدول وأفولها بسببية متلازمة لاتنفك أبداً بين مقدماتها ونتائجها، فالدول والحضارات لا تبنى بالسنن الخارقة وإنما بالسنن الجارية .

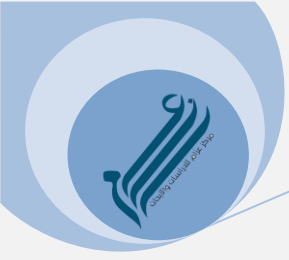
- 2- قراءة التجارب السابقة والاعتبار منها، قال تعالى **(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)**.

[يوسف:111]

الغالب من الأمة لا يعتبر من التجربة، لذلك تلاحظ أن الاعتبار من التجربة السابقة هو من صفات أولي الألباب، **{لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}**، أمّا عوام الأمة فلا يعتبرون إلا من

التجربة الذاتية ولا يتعلمون إلا من رصيدهم الخاصّ، هنا مهمة أولي الألباب إرشادهم إلى هذه الفريضة المُغَيَّبَة، فريضة الاعتبار التي عَطَلت أمام اهتمام المفسرين بالسرد القصصي للقصص القرآني ونقل ترقيعات إسرائيلية ليكملوا بناء القصة وتغيب الاعتبار والعبور من تجارب التاريخ إلى فهم الواقع.

3- قراءة النصوص التي تتكلم عن عودة الإسلام وظهوره ونصره بعد الغربة والانزواء واستنباط المواقف منها، لكنّ الأمة اليوم تهدر السنن بالمغالبة تارةً وبالقفز عليها تارةً أخرى لتحرق المراحل، وتقرأ القصص القرآني للتسلية والوقوف على الغرائب، ونسأل: ما لون كلب أهل الكهف مثلاً، دون اعتبارٍ من التجارب، وهناك من يهدر الفائدة بقوله: شَرَعُ مَنْ قَبَلْنَا لَيْسَ شَرَعًا لَنَا. أمّا أحاديث الفتن فقرأتُنا لها أشبه بالشعوذة الفكرية ومحاولة التكهّن بالغيب عندما نعجز عن فهم واقعنا دون وضعها في مسارها الصحيح وتميز الثابت منها مما لم يثبت أو صريح المعنى من غيره، فصارت كثير من الجماعات تستدل على صحة مسلكها بإنزال أحاديث الغيب والفتن على جماعتها.



الفصل الثاني

تيارات إسلامية بين
الشبهات والشهوات

كل من ينحرف عن جادة الصراط المستقيم ينحرف إما بشهوة أو بشبهة.

انحرافات الجماعات الإسلاميّة على ثلاث ضروب:

- 1- انحراف نحو الأعلى (كتحريف الغالين).
- 2- انحراف نحو الأسفل (كتأويل الجاهلين).
- 3- وانحراف تجانب (كانتحال المبطلين).

ومَرَدُّ ذلك إلى غياب التقوى عن القلوب التي تلجم جموح الشهوة، ونقص في الإدراك والعلم الذي يعصم من مزلق الشبهة. مشكلتنا أننا عندما أتينا لنحارب الإرجاء أصلنا لفكر الخوارج ونسبناه لمعتقد أهل السنّة ظنّاً منّا أنّنا بذلك نكون قد قضينا على الإرجاء، ولم نُدرِك أن الإرجاءَ هو أخذٌ منعكسات الفكر الخارجي ومتولد عنها بردة فعل عكسية إذ لكل فعلٍ ردٌّ فعل مساوٍ له بالقوة ومعاكس له بالاتجاه، ولو أبطلنا شُبّه الخوارج لهدأت ثورة التكفير تلقائيّاً، ولتجففت مستنقعات الإرجاء التي تتغذى من مفرزات الغلو. ومن الملاحظ أنّ أغلب الجماعات الإسلاميّة التي اتجهت في مسار الجهاد كانت حاضنة لشبه الغلاة،

وأغلب الجماعات الإسلاميّة التي اتجهت في مسار السياسة كانت حاضنة للإرجاء.

ما يجب أن نجزم به بدايةً أن نعلم أنّ ليس المجاهدين كلهم غلاة، وليس كل المرجئة عبيداً للطواغيت.

أولاً: الشبهات

منشأ الشبهات هو عدم الرسوخ في العلم وشيوع الشبهة بين العامّة عندما يتصدر من لم يرسخ في العلم للتعليم والإرشاد واتخاذ الرؤوس الجهال.

لا يمكن للأمة أن تنعّيق من التبعية والخضوع إلا بكسر شوكة اليهود الضاربين بأطنابهم في مفاصل القوة العالمية، ولن يكون ذلك إلا برفع راية الجهاد الربّانيّ (غير المتحرّب) والدعوة الربّانيّة (التي لا تدعو إلى حزبية)، لذلك كان بقاء إسرائيل مرتبطاً بكسر راية الجهاد، المرجئة نكّسوا الراية والغلاة شوّوها صفاءها. في التاريخ اقتران مطّرد بين افتراق المسلمين وخروج المارقة، وبين اجتماع المسلمين وانجحارها. الجامع المشترك لشبه الخوارج أنّها خلل في التأصيل وأخطاء في التنزيل.

1- شبهة يعتمد عليها الخوارج:

يذكرون في قواعد التكفير (من لم يكفر الكافر أو شكّ في كفره فقد كفر) [1] هو مثال للتخبط والجهل في هذا الباب، فظاهر القاعدة تكفير من لم يكفر الكافر، مع أن بعض المكفّرات تنازع العلماء في كونها مكفّرة -كترّك الصلاة مثلاً-، فهل يلزم تكفير من لم يكفر تارك الصلاة وهم جمهور العلماء؟! جاء المرقّعون أصحاب التأصيل ليحلّوا المشكلة، وضعوا قيد الكفر المجمع عليه أو الكفر القطعي! وهذا الكلام يجعل من القاعدة بأقل تقدير لغواً لأنّ إنكار أيّ شيء من قطعيات الدين كُفّر مهما كان هذا القطعي، سواءً كان حرفاً من حروف القرآن، أو تكفيراً لكافر، مما يجعل عدم تكفير الكافر وصفاً

غير مؤثر في المسألة، ووضع الوصف غير المؤثر في الضابط لغوً عند أهل الأصول، وأيضاً يُغني عنه قاعدة "من أنكر قطعياً من الدين فقد كفر"، فبينها وبين تلك القاعدة بالضابط الذي ذكروا عموم وخصوص وجهي، فصار أصل القاعدة لغوياً، والقيد هو الأصل، ويُغني عنه قاعدة أخرى!
كتبه (أبو أيمن الحموي)

2- شبهة خارجية:

يأتي البعض إلى أحاديث الطائفة المنصورة والفرقة الناجية واعتبروها منهجاً ونبراساً لهم وصاروا يستدلون بها على واقعهم، ويجدر هنا التنبيه إلى أنّ من العلماء كالشاطبين رحمه الله ذكر أن الخوارج هم أكثر الناس استدلالاً بأحاديث الطائفة المنصورة!! الغريب في الأمور أنهم أسأؤوا فهمَ سياقها واعتبروا العلامات التي فيها شروطاً وموجبات وخلطوا بين الأمر الشرعيّ والأمر الكونيّ. وبيان الأمر أنّ ما يرد في كلام الشارع أحياناً يكون من باب العلامات وأحياناً يكون من باب الموجبات، فوضع هذي مكان تلك يَجْرُ للخطأ، فأخبار الشارع للنبي صلى الله عليه وسلم أنّ قومه سيُخرجونه مثلاً، هذا أمر قدرّيّ لكنه شرعاً غير مطلوب، بل إنّ عليه أن يعمل على عكسه وهو البقاء في مكة ودعوة أهلها فلا ينبغي أن يخرج منها تحقيقاً للخبر! والمتأمل في نصوص الطائفة المنصورة يجد مفارقة بين النصّ وما يُنزلونه عليه من واقع. (لا تزال) تفيد الاستمرارية، أي أنّها كانت ولا زالت، والتاريخ يشهد أنّ الذين حملوا راية الجهاد في كثير من حقب التاريخ من الصوفيّة وليسوا من السلفيّة الجهادية. فلن تستطيع جماعة ما أن تدّعي لنفسها أنها حاملة لواء الجهاد في كل التاريخ الإسلاميّ. (من أمتي) ولم يقل لا تزال أمتي طائفة، فالطائفة المنصورة من الأمّة وليست كل الأمّة. فهل يعقل أن تختزل الأمّة بجماعة ثم تدعي هذه الجماعة لنفسها أنها هي من تمثل جماعة المسلمين؟!

(ظاهرين على الحق) فحكموا لتنظيماتهم بالعصمة بناء على هذه الجملة من أنّ الحق ملازم لطائفتهم، الأمر الذي صدّهم عن مراجعة مناهجهم.

فما قولك في قوم يعتبرون التصنيف على لوائح الإرهاب العالمية مآثرةً يتفاخرون بها ويوزعون الحلوى لأجلها ، بدل أن يوزعوا على أفرادهم أذكار الهمّ والكرب ويعلموهم أن يفزعوا للصلاة ويسألوا الله أن يكفيهم شر أعدائه!! بل ويعتبرها كثير منهم دليل صلاح منهجهم أن الأمم تكالبت عليهم!!

(لا يضرهم من خالفهم) فجعلوا كل من يخالفهم من الجماعات الإسلامية الأخرى هو ممن خذل الحق وحاد عن الجادة والصواب.

3- إسقاط أصل من الأصول الكلية:

عندما تُحدّث السلفية الجهادية أنّكم توجدون الذرائع لأمريكا والغرب للتدخل في بلاد المسلمين ، يأتيك الرد: أمريكا لا تحتاج للذرائع، والذريعة هي أمر غير ممنوع في نفسه، ولكن تُخاف في ارتكابه الوقوع في ممنوع.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على اعتبار الذرائع ، قال الله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} (الأنعام: 108)، فمنع من سبّ آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك.

ومن السنة تهئية - صلى الله عليه وسلم - عن تصوير من مات من الصالحين وبناء المساجد عليهم خشية أن يعبدوا. وقد جعل الأئمة هذا المبدأ من القواعد الكلية التي يُرجع إليها لاستنباط الأحكام الشرعية. عند الإمام مالك وأحمد بن حنبل.

4- شبهة خارجية:

تزوج بين الخوارج مقولة "لا يفتي في الجهاد إلا من جاهد" أو "لا يفتي قاعد لمجاهد"

الأثر الذي يعتمد عليه سفهاء الأحلام في تسوّر الإفتاء: إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغر، أو فاسألوا أهل الثغر، فإن الله يقول: **{والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}**، اختلفت في نسبته ولكن كلّ أسانيده لا تصحّ أبداً.

هذه الشبهة تفضي إلى إسقاط المذاهب الأربعة كون الأئمة الأربعة لم يكونوا من المجاهدين، ومن الأمثلة على شبهة حصر الفتوى بالمجاهدين ونسف علماء الأمة أنهم -أي الخوارج- يفتون بريدّة الجاسوس المسلم، وهذه الفتوى مخالفة لما عليه المذاهب الأربعة عند أهل السنة، لذلك تجد للخوارج تعامل مزدوج مع النصوص الشرعية بطريقتين:

- النصوص التي يفيد ظاهرها التكفير تبقى على ظاهرها ولا يقبلون بفهم السلف إذا كان هذا الفهم يصرفها عن ظاهرها، ويُعْمِلُونَ مِعْوَلَ الطعن في صحة الرواية كما ضعّفوا أثر ابن عباس في تفسير **{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}**

- الروايات والأحاديث التي تعذر من وقع في الكفر أو الكبيرة يعملون معها مسلك التأويل لصرفها عن ظاهرها وإن لم يكن لهم بذلك سلف، كصرفهم لحديث حاطب عن ظاهره وإبطال الاستدلال به بحجّة أنّها خصوصية لحاطب، وكحديث الرجل الذي أوصى أبناءه أن يحرقوه بعد موته خشية لقاء الله.

هناك مقولات تعتاش عليها الأقسام وإنّ قالها أئمة أعلام:

مثل (نحن رجال وهم رجال) (لا يُعرّف الحق بالرجال) (كل الناس يؤخذ منها ويرد عليها) (إذا صح الحديث فهو مذهبي) (أنت الأمة ولو كنت وحدك)

هذه الكلمات صرنا نسمعها حتى ممن لا يحفظ متناً واحداً في العلم.

5- شبهة خارجية:

عمد البعض إلى تسفيه آراء الأغلبية المسلمة وحصص الشورى في أهل الحلّ والعقد، وهو يقصد بأهل الحلّ والعقد في جماعته طالما أنّها هي بعينها تمثل جماعة المسلمين، وقد حشد لذلك أدلة يظن أنّها تسعفه بما يبغى ظناً منه أنّه قد ألقى مخالفيه الحجر، وبالنظر إلى ما استدلل به تجد أنّه عمد لآيات نزلت في الكفار فجعلها على المسلمين، مثل قوله تعالى:

{وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام:116].

{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف : 103] .

المتتبع لهذه الآيات يجدها تتناول الكفار وليس المسلمين فضلاً أن تتناول الطليعة المؤمنة.

صدق ابن عمر إذ قال: (أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في المشركين فجعلوها على المؤمنين).

6- الاحتجاج بالحكم الكونيّ على تجويز الحكم الشرعيّ:

شبهة خارجية في الخلط بين الحكم الكوني والحكم الشرعي. دأب كثير من أبناء الجماعات الإسلامية إلى تبرير تصرفاته بالحكم الكوني لكسب الشرعية.

إنّ الخلط بين الحكم الشرعي والحكم الكوني مطبّب خطير يقع فيه كلّ من لم يرسخ بالعلم في أحد كتب فقه الجهاد.

أتى المؤلف واسمه أبو عبد الله المهاجر على دليل من السنة على جواز القيام بأعمال تفجيرية ولو اختلط الكفار بالمسلمين وقُتِلَ من الطرفين ثم يحشرون على نيّاتهم، ولم نر له سلف في ما جاء به من فهم.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا بببءاء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم، قالت: قلت يا رسول الله: كيف يُخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: يُخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نيّاتهم" صحيح البخاري.

فإن الحكم الكوني هو ما قدّر الله تعالى أنّه سيحصل وقوعه فعلاً، فإذا حكم كوناً بوقوع شيء فلا بد أن يقع ولا يستلزم ذلك محبته، فقد يحكم الله كوناً بوقوع ما لا يرضاه لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

وأما الحكم الشرعي فهو ما طلب الله من العباد تطبيقه والعمل به من الأحكام الشرعية، وهذا لا يستلزم الوقوع، إذ قد يقع وقد لا يقع، فقد أمر الله أبا جهل بالإيمان ولم يؤمن.

ثانياً: الشهوات

1- شهوات نفسية تقع فيها الجماعات الإسلاميّة هَوَسُ السلطة وإقامة الدولة في مرحلة ردّ العدوّ الصائل سيجعل الجماعات الإسلاميّة تدخل في صراع بينيّ، وتعكف على مشاريعها الخاصّة ويبقى شعار ردّ الصائل مطية. والنتيجة، لا هي للصائل ردت، ولا لدولة الإسلام أقامت، **{ولاتنازعوا فتفشلوا}**.

الحكم والسلطة هو الوسيلة وليس الغاية (أغلب الحركات الإسلاميّة وصل إلى السياسة الميكافيلية - الغاية تبرر الوسيلة)، وتغليف شهوة الحكم يَمْسُوح تطبيق الشريعة صارت خدعة لا تنطلي على أحد، وْحُجَّة يتذرع بها العلمانيون للطعن في العاملين الصادقين للمشروع الإسلاميّ فهناك علاقة تخادم بين العلمانيين والغلاة في السعي إلى السلطة. الغلاة يستعملون بعبع العلمانية للاستبداد بالسلطة، والعلمانيون يستعملون بعبع الغلاة للاستبداد بالسلطة. إخلاف وعد واحد من تنظيم إسلاميّ كافية لإسقاط كل الإنجازات التي غالباً تحمل طابع الدعاية السياسية والبعد الاحتفالي لترويج الفكر الخاطيء من خلال المنجز النبيل لأنك تتعامل مع شعب عاطفي سريع النسيان للحسنات.

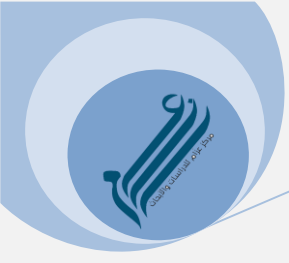
وفي سبيل ذلك استعملت كل التجاوزات الشرعية لتثبيت الحكم وبررت أنّها للمصلحة الشرعية، فوقعوا بطاغوت المصلحة الذي كانوا ينكرونه على غيرهم.

حتى الحسنات التي تنجزها الجماعات الإسلامية تنحوا منحىّ الدعاية السياسية، فتجد أنهم يحرصون على حسنة بين كل سيئتين تبرّر ما قبلها وتمهد لما بعدها.

البعض يمارس سياسة حسنة واحدة بين كل سيئتين تمحو ما قبلها وتمهد لسيئة بعدها شهوة الاستكبار على العامة بما لديهم من علم واغترارهم أنهم الطائفة المنصورة المحقة وأنّ اجتهاداتها هي دائماً الصواب جعلتها تعيش في برج عاجي.

الفكرة السلطوية بذاتها أشغلت العقول، فالكلمة يبحث عن دولته التي يستطيع أن يقيم فيها أيديولوجيته ويصارع المنافسين له. الذي يريد أن يقيم الإسلام لا يُفكر بالدولة بل يُفكر بالأمة لتقيم هي الدولة.

الدولة هي البيت الجامع للأمة وليست شقة خاصّة للحزب والجماعة.



الفصل الثالث

الفقه الحركي والانتقال من فقه الجماعة إلى فقه الأمة



معنى الفقه:

لقد حوّر معنى الفقه في الدين الذي دلّت عليه الأدلّة المتضافرة على عظيم فضله لينحصر في زاوية فقه الأحكام، وهذا لم يكن شائعاً عند السلف الصالح، بل هو يشمل الفقه الشمولي، وهكذا قوله صلى الله عليه وسلم في حديث معاوية في الصحيحين: {من يُردِ اللهَ بهِ خَيْراً يُفَقِّههُ في الدِّينِ}، فليس المعنى في هذا الحديث: أن يُفَقِّههُ في الدين، أي: أن يجعله عالماً بالحلال والحرام فقط ، كلا! بل المعنى أشمل من ذلك، فالمعنى أن من أراد الله به خيراً جعله عالماً في الدين كل الدين، ومن ذلك، الفقه الحركي للجماعة الذي يتناول التكاليف الجماعية من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الشرع وعقد الإمامة والقيام بالفروض الكفائية من عمارة الدنيا لتصل الجماعة به إلى التمكين وسيادة الشريعة.

سعة الفقه وأوجه الاجتهاد المعتبرة فيها متسع لتبني رؤية تستند إلى وجه من الوجوه.

والخيارات الفقهية مما يميز الإسلام السني.

وليس عيباً تلك السعة، إنما العيب أن تتضارب فيما بينها، وأن تغييب إرادة التعاون والتكامل بما لا يفوت على الأمة مصلحة. وإنما جاء سوء النظر من استخفاف البعض بخيارات الآخر، وتحمله مآلات اختياراته دون استكمال اختبارات الخيار الفقهي على محكات تجارب لما تنته بعد.

وفيما بين ابن المبارك والفضيل بن عياض درس ونموذج للاقتداء دون نكير أو تبكيت كل في مساره يدعم الآخر. آفة الحكم على المواقف والخيارات رغبة محمومة لدى كل الأطراف في التنقيص والتبخيس، وليس الوقوف على قواسم مشتركة. ولعل حالة التشظي التي تعيشها الأمة مما تنتج تلك الفوضى في الأحكام على مسارات واتجاهات دون محاولات لتفهم الدوافع والأسباب.

ولعل أيضاً حالة التسيّب من تصدر كل للرأي والنظر هو ما يشغب على أكابر العلماء في إشاعة وإعلان ونشر آراء واجتهادات معتبرة لو تحقق لها ذلك، لقطعت الطريق على حالة السيولة في الرأي لدى كل أحد.

وتحقيق معنى الاستخلاف يتشكل من استيعاب عشرة أنواع للفقه:

- 1- فقه المرحلة: وهذا يحتاج للمقارنة بين الإمكانيات والتحديات لتحديد المرحلة ومتطلباتها واتخاذ الموقف المناسب، والتميز بين مرحلة القوة ومرحلة الضعف، وساحة الدعوة وساحة الجهاد.
- 2- فقه المآل: وهذا يحتاج إلى النظر في النتائج التي تُفُضي إليها المواقف والأعمال المشروعة في أصلها، ولكنها قد تؤدي إلى نتائج ومفاسد تفوق المصالح المبتغاة منها، فيكون تحريمها ليس لذاتها وإنما لمآلاتها والتي تدرك من خلال الاطراد والعادة.

3- فقه المصلحة: وهذه يجب أن تنضبط بضوابط المصلحة المرسلة في أصول الفقه التي لم يدل الدليل على اعتبارها ولا على إلغائها بنصّ، وجعل مسلك النظر والاستنباط هو المسلك في تحديدها.

4- فقه التأليف: وهو تابع للمصلحة، فاجتماع الأمة وتآلفها مصلحة لا تفوقها أي مصلحة، وفي ذلك قد يجوز لنا السكوت عن بعض المنكرات وتأجيل بعض السنن التي ربما تؤثر على التآلف بين المسلمين الذي يشكل لنا فريضة متقدمة على كثير من السنن فلا يجوز أن نهدر اجتماع الأمة من أجل سنة أو مندوب.

5- فقه التغيير: وهذا أيضاً له قواعده، لا يجوز تغيير منكر يؤدي لمنكر أكبر منه أو أنكر ما اختلف فيه العلماء أو البحث عن منكر مستخف، وعلى العامل به أن يتسلح بالعلم قبله والرفق فيه والصبر بعده، ويجب أن يبدأ من عالم الأفكار والعواطف قبل السلوك.

6- فقه الأولويات: من أين نبدأ ومتى نبدأ، كذلك يحدّده سلم الأولويات في أصول الفقه. ولدى النظر في أحوال الجماعات الإسلامية نرى أن غالب اختلافهم هو اختلاف في تحديد الأولويات، منها من يولي الجهاد الأولوية الأولى، ومنها من يجعل التمسك بالهدي الظاهر أولوية تُقدّم على غيرها، ومنها من يرى الدعوة وتزكية النفس على رأس الأولويات، منها من يرى مشروع الخلافة والنظام السياسي الإسلامي تاج الفروض.

7- فقه التمكين: وذلك بتحديد نقاط القوة عندنا ونقاط الضعف وقياس ذلك على المحيط المصارع بعد تحييد أكبر عدد من الخصوم ثم الخروج بالنتيجة.

8- وهناك فقه الموازنات الموازنة بين المصالح والمفاسد، والموازنة بين المصالح والمصالح،

والموازنة بين المفاسد والمفاسد، ثم الترجيح بينها باختيار أصلح المصلحتين وأخف المفسدتين.

9- فقه المقاصد: وهذه هي الأهداف العامّة للإستراتيجية التي يجب أن يتبنّاها هذا التيار، وهي ضابطٌ للتحرك في إنزال أحكام الفروع على الواقع، والإمام الشاطبي علم في هذا المضمار، وهذه الضروريات هي: (حفظ الدين والنفوس والعقل والنسب والمال). حفظ مقاصد الشريعة يكون بأمرين:

أ- من جهة الإيجاد بإقامة أركانها وقواعدها.
ب- من ناحية منع انعدامها وما يدرأ عنها خلال الواقع والمتوقّع، فحفظ النفس من الضروريات الخمسة، حافظت الشريعة عليه من جهة الإيجاد بتشريع الزواج ومن جهة الاستمرار ومقاومة العدم من خلال إمداد النفس بالغذاء ومقوّمات البقاء.

المسارُ الصّحيح في إقامة الشريعة هو ربطُ الأحكام بالمقاصد، وهذه الثغرة التي أتت منها الجماعاتُ الإسلاميّة التي تنظر إلى الأحكام الجزئية منفصلةً عن مقاصدها، الأمر الذي يوقعها في هذر أصل كُليّ لتحقيق فَرْعٍ من الفروع والسير في تطبيق الشريعة مسير الاصطدام والتنطع.

في فقه المقاصد قد يَرْتئي الفقيه إلغاء فرع أو تأخيره وتقديم آخر أو ارتكاب محذورٍ بناءً على نظره في المآل، أو المقارنة بين المصالح والمفاسد المترتبة على هذا الفرع وما قد يضر الإتيانُ به من خللٍ في المقاصد الكلية.

لم يكن قيام الدولة الإسلاميّة والإمامة مقصداً شرعياً بحدّ ذاته إلا لرعاية وحفظ مقاصد الشريعة من الأنفيس والأعراض والدين والمال، فإذا تسبّب إيجادُ هذه الدولة بهذر الأعراض والدين والأنفيس فيَبْطُلُ المُكْمِلُ لاختلال الأصل كما ذكر الإمام الشاطبي في أول باب المقاصد (الموافقات).

10- فقه السنن الربّانيّة في نهوض الأمم وهلاكها التي تتسم بسمتين: الثبات والاطراد.

11- فقه النفس والتزكية، والاجتهاد في ذلك ضاع بين الإفراط والتفريط، وسنتحدث عن هذا الفقه بإسهاب في الفصول الآتية.

غياب المرجعية العلمية الربّانية وتصدر الرؤوس الجهّال من المنظرين المتحزبين:

تكاد تكون علاقة الحركات الإسلاميّة مع علماء الأمّة علاقة انفصال تام، الأمر الذي يجعلهم في عزلة تامة عن الأمّة التي ترتبط بعلمائها أكثر من أي شيء آخر، ناهيك عن أنّ العلماء لا يمكن أن يتعايشوا في الأجواء الحزبيّة القائمة على تلقي الأوامر وتنفيذ الأعمال. إنّ السقوف المتدنيّة لا يمكن أن تستوعب القامات الطويلة، وحتى يعود الأمر إلى نصابه وجب على الحركات الإسلاميّة أن تتّبع العلماء وليس العكس، هذا الأمر دفع الكثير من الأحزاب أن يصنعوا مرجعية علميّة مصطنعة على أذواقهم تُغذي العصبية الحزبيّة وتقوم على سيدانتها وحراستها وتأصيلها في نفوس الأتباع، لذلك فقدت هذه الجماعات صمام أمانها فهي عرضة للانفجار في أيّ لحظة في وجه الأمّة.

ولأنّ المنظر المتحزّب يرى الحقائق من خلال عيون من يحب، فينوّع عن الإنصاف ويفقد ثقة قطاع كبير من الأمّة بسبب تحزبه، فصارت تنظيرات المتحزبين سبباً لدخول الجماعة في صراع مع أمّتهم بعد أن صارت عقيدة الولاء والبراء مقتصرة على أبناء التنظيم لا تتعدّاهم، ويعبرون عن ذلك بإخوة المنهج. وما صنميّة المنهج هذه إلا فتنة سامري يفرقون بها بين المرء وأمّته.

هذا ما دفع البعض للطعن في علماء الأمّة الحريصين على اجتماع الكلمة الحاملين للواء الإصلاح وواد الفتن لكي يُمرّر منهجه الحزبي، ولجأ البعض إلى تفصيل مرجعيّات متناسبة مع مقتضيات المصلحة الحزبيّة.

بعض الأحزاب الإسلاميّة تشابه اليهود ببُهتانها، لو وافقهم طالب علم بهواهم قالوا عالمنا وابن عالمنا، ولو خالفهم بمسألة واحدة

قالوا جاهلنا وابن جاهلنا، فمن يبحث عن العالم الربّانيّ بين المتحزبيين هو كمن يبحث عنه بين علماء السلاطين، حتى أنّ بعض الأحزاب شابّهت وزارة الأوقاف لدى الطغاة، حتى في كتابة ما يُراد من العالم أن يتكلم عنه وما يُراد له أن يسكت عنه، وما أسهل من قرار الطرد إن حادّ عن المطلوب والمسار المحدّد. قال الإمام أحمد رحمه الله: " إذا سكت العالم تقيّةً وتكلم الجاهل بجهله ، فمتى يظهر الحق ؟ "

يلتجئ الناس إلى العلماء في الفتن لأنّ العلماء يُبصرون الفتنة قبل أن تقع،

أما العوام فيدركون الفتنة عند وقوعها،

وأما الحمقى فيدركون الفتنة بعد وقوعها،

وأما المتكبرون فلا يعترفون بوجودها،

هنا لا بُدّ من توجيه كلمة للمدارس المنتجة لطلبة العلم.

إن العقلية المنتجة في كل المدارس الشرعية هي مدارس تصنع

طلاب علم تنتظر التلقّي وترديد ما تتلقاه ، فأغلبها عقليّة تقليديّة

لا شأن لها بالإبداع والاستنباط ودراسة الحالات الطارئة

والمستجدة، لذلك تجد أنّ موقفهم في كثير من القضايا المستجدة

موقف مرتبك ومتردد، وغالباً يتشكل بعد فوات الأوان وانسياقاً

لرأي العوام الذين يدركون الموقف ببساطة الفطرة.

يجب أن لا يدفعنا الخروج من الصنميّة إلى إسقاط الرموز، ولا يصل

بنا تقديس الرموز إلى نصب أصنام جديدة.

الدعوة الربّانيّة والدعوة الحزبيّة

لا يمكن القضاء على الدعوات الحزبيّة إلا بتجذير الدعوة الربّانيّة.

يُراد برّبانيّة الإسلام انتساب الإسلام و أحكامه وتشريعاته

المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية.

الربّانيّة شيء مغايرٌ تماماً للحزبيّة.

الانتساب والاستمداد والدعوة والجهاد المنتفي عن الإطارات الحزبية الضيقة التي تُأزم علاقة الأمة ببعضها وتسمح بوجود ثغرات ينفذ منها الأعداء والحكومات الوظيفية. يجب أن تدرك الأمة أنّ قيام جماعة من الأمة لتحمل قضية الإسلام من دون الأمة يستتب بتحديد قسم كبير من الأمة وترك هذه الجماعة تواجه تحديات الأمة بمفردها.

سفهاء الغلاة نسخوا الدعوة إلى الله:

1- بين المسلمين بإسقاط العذر بالجهل فنصبوا أنفسهم قضاة يتربصون بالمكلفين الزلل.

2- وبين الكفار بإسقاط فهم الحجة والاكتفاء ببلوغها ، فجعلوا من هذا الأمر بوابة لبدأ القتال دون بيان.

من الجماعات الإسلامية من يسلك مع الأمة مسلك التوريط لِرَجِّها في الصراع بدلاً من منطق الإقناع والتحشيد والخطاب الربّانيّ الذي لا يقوم بفرز الأمة إلى جماعات وأحزاب بالتنقيب عن مَمَسِّكِ لِتَبَنِّي الاختلاف وتأصيله وخلق الصراعات الجانبية بين جماعاتها، وإثما يُعزّز الانتماء للأمة والاجتماع على أصول الإسلام. نحتاج قبل ذلك إلى إيجاد الدعوة الربّانية والجهاد الربّانيّ والفهم الربّانيّ والحركة الربّانية ، لذلك نجد القرآن الكريم يتحدث عن الربّانية في مقامين: مقام الفهم والدعوة، ومقام الجهاد والحركة. الدعوة الربّانية وليس الدعوة الحزبية والمسميات البدعية للأحزاب التي صارت شارة واضحة عن مسمى الإسلام الذي برأي هو مسمّى وقفى لا يجوز الحَيْدُ عنه لأسماءٍ ابتدعوها وما رَعَوْها حق رعايتها.

قال تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ}.

وكذلك نحتاج إلى الجهاد الربّانيّ الذي يُستمدُّ من كلّ الأمة وليس من جماعة بعينها، ويصب حصادها في مكاسب الأمة وليس لمكاسب جماعة بعينها، ويسير وفق المنهج الربّانيّ وليس وفق

منهج الجماعات، وهنا لا بد من تفعيل المدارس الفقهية المجمع عليها كالمذاهب الأربعة مثلاً، قال تعالى:

{وَكَايْنٍ مِّن تَيْبٍ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} (146) آل عمران.

من هنا تصل الأمة إلى التمكين لتنتقل إلى بداية التحرر والانعتاق، ولن تصل إلى التمكين ما لم نوجد الدعوة والفهم الربانيّ والجهد والحركة الربانية بالفهم الشموليّ والوسطيّ والمرونة والثبات والتوازن والخطاب العالميّ الموسوم بخصائص الإسلام العامّة. استنهاض الأمة بالدعوة الربانية مقدمة لا بدّ منها للوصول إلى التمكين والسيادة.

هنا لا بدّ أن ندخل بما يسمى فقه التمكين وبناء الشوكة والمنعة للأمة الإسلامية قبل الحديث عن الخلافة والدولة.

أولاً: فقه التمكين:

كثير من الجماعات ما إن يجتمع حوله ثلّة من الرجال وخرده من السلاح في مساحة من الأرض حتى يعلن عن نفسه إماماً وعن أرضه دولةً وعن حزبه جماعة المسلمين، وهم لا يقدرّون أن يظهروا أسماءهم ظناً منهم أنهم صاروا من المُمكّنين في الأرض وأنّ واجب قيام الخلافة صار على عاتقهم، وهذا من تسمية الأوهام بالحقائق دون إدراك لمعادلة التمكين المعقدة خصوصاً في هذا العصر.

معادلة التمكين :

التمكين هو عناصر (القوة) =

1- المعطيات الثابتة في القوة = {التاريخ (تحضير الذاكرة والتجربة)

+ الجغرافيا (تحديد الأرض الصديقة والعمق)

+ (عدد السكان القوة البشرية كماً ونوعاً) + الثقافة (التمسك بالهوية والانتماء))

2- المعطيات المتغيرة في القوة = {القدرة الاقتصادية (موارد تعطي القدرة على الصمود) + القدرة التكنولوجية (قوة الردع) + القدرة العسكرية (التعبئة الجهادية)}

التمكين

المعطيات الثابتة في القوة

المعطيات المتغيرة في القوة

التاريخ

الجغرافيا

عدد السكان

الثقافة

القدرة الاقتصادية

القدرة التكنولوجية

القدرة العسكرية

نتوصل إلى معادلة التمكين:

القوة = {المعطيات الثابتة + المعطيات المتغيرة} (الذهنية الاستراتيجية (قراءة المحيط وتقسيمه إلى عدو \ حليف \ محايد) + التخطيط الاستراتيجي (تحديد القدرات الأساسية ودراسة التحديات) + الإرادة السياسية (القيادة امتداد لإرادة الشعوب وليس العكس)) وبذلك تصبح المعادلة:

التمكين = {التاريخ + الجغرافيا + عدد السكان + الثقافة} + {القدرة الاقتصادية + القدرة التكنولوجية + القدرة العسكرية} مضروبة في (الذهنية الإستراتيجية + التخطيط الاستراتيجي + الإرادة السياسية)

يقول الشيخ المجاهد أبو يزن الشامي رحمه الله تحت عنوان التمكين في الوهم والعقلية الاحتفالية:
المكاسب في علم السياسة إمّا صلبة (ذات طابع استراتيجي) أو هشة (ذات طابع احتفالي)، صلح الحديبية مكسب صلب، تحرير أبو جندل مكسب هش.
صلح الحديبية فترة استقرار وبناء عشر سنوات لدولة النبوة الصاعدة، اعتراف المحيط بها كدولة قائمة بعد أن كانت عصابة بنظرهم و قلع لخنجر اليهود في خيبر وو...
التخلي عن مكاسب الحديبية السياسية مقابل أسير هو مكسب للاحتفال أكثر منه مكسب لبناء الدولة، لذلك تركه عليه الصلاة والسلام لأنّه رجل يبني دولة.
استدعاء العاطفة من ابن الخطاب كان سيولد أزمة داخلية ويؤدي لخسارة مكاسب الحديبية، لذا ندم عمر أشدّ الندم وقال: "عملت له أعمالاً"، فقول عمر: (ألسنا على الحق؟ بلى، قال: أليس عدونا على الباطل؟ بلى، قال: فلم نعطي الدنيّة في ديننا؟) مقتل سياسيّ أنجانا عليه الصلاة والسلام منه.
العقلية الاحتفالية تجعل العمل الاستراتيجي من الصعوبة بمكان، فتربية الإصدارات والأناشيد لا تولّد عقلية احتفالية فقط بل مهرجانية.
العقلية الاحتفالية طغت على المشهد الجهادي بسبب الغلو وأهله، وهذا الطغيان لا يعالج للأسف إلا بضربات الواقع المؤلم.
يبدو أنّ قدرتنا في الشام أنّ نخوض كل الجولات بانتظار الجولة الأخيرة، فإنّ للوعي في زمن الاحتفالات ثمناً أعظم مما كُنّا نظن.

مراحل التمكين في السيرة النبوية

1- مرت الدعوة الإسلامية بمرحلة الاستضعاف التي قاسى بها الرّعيّل الأول أصناف البلاء مع امتناع البعض بعشيرتهم أو الدخول بحماية كافر مجير، وانتهت هذه المرحلة بإسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب،
جاء في البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((ما زلنا أعرّة منذ أسلم عمر))
لتبدأ:

2- مرحلة تمكين النكايّة أو التمكين الجزئي الذي كفّ أذى قريش عن أغلب المسلمين، ولكن لم يُعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الدولة وكانت جُلّ البيعات التي تُؤخذ هي بيعة على الإسلام فحسب.

إنّ إعلان الدولة في هذه المرحلة ليس أكثر من إدخال القاعدة الصلبة في مواجهة غير متكافئة ربما تنتهي بإجهاض المشروع الإسلاميّ برمته، وهذا ما تُكرّزه الحركات الإسلاميّة من حصدٍ للفشل تلو الآخر تحت ضغط الاستعجال وحماس الصدق والجهل بفقه المرحلة وحرقي للمراحل وقفز على الأسباب.
ثم جاءت:

3- المرحلة الثالثة وهي تمكين الحماية والمَنعَة، وبدأت ببيعة العقبة الكبرى فكانت بيعةً على القتال والحماية والنصرة، وهي التي تُوجت بقيام دولة المدينة.
وبدأ الجهاد الدفاعي والذي استمر إلى:

4- المرحلة الرابعة : غزوة الخندق حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها: "اليوم نغزوهم ولا يغزونا".

وهذا موضع الخلل عند أغلب الجماعات الجهادية التي لا تزال في تمكين النكايّة، وتريد أن تقطف لوازم تمكين الحماية فتقع في الانتكاس وتبديد طاقتها وإفناء شبابها في مواجهاتٍ تنتهي بطليعتها إلى الجبال والكهوف، ثم يفسّرون ذلك أنّه الابتلاء من أجل التمحيص، مستدلين بمثلٍ لم يتكرّر في السيرة إلا مرّة ويتكرر

في عمل الجماعات الإسلامية في كل مرة، ويهتمون كل من لم يسر معهم بهذا الاجتهاد بالخيانة والعودة عن الجهاد والتخذيل.

هل انتقلت الحركات الإسلامية من السفه إلى الرشد؟
لقد نهى البيان الإلهي وَلِيّ الْيَتِيمِ أَشَدَّ النَّهْيِ عَنِ إِيْتَاءِ السَّفَهَاءِ
أموالهم قبل الاختبار لهم على جزء منه، فإن التمسنا منهم رُشداً
دفعنا إليهم المال، وإن كانوا يراهقون في السفه بقي الحِجْرُ عليهم
ملازماً. قال تعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
قِيَاماً،} وقال تعالى: {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ
آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}.

وما ينطبق على سَفَهٍ فَرْدٍ ينسحب على سفه أمة. إذا أراد الله
تعالى أن ينشل الأمة من حال الاستضعاف إلى التمكين اختبرها
بشيء من التمكين الجزئي، فإن أثبتت من نفسها رُشداً نقلها من
التمكين الجزئي إلى التمكين الكلي، وإن بقيت تراهق في السفه
أزكسها في الضعف وحَجَرَ عليها خلافة الأرض إلى حين، فهل
يخالف الله ما ينهانا عنه؟ هيهات.

من فقه التمكين عبر المسارات الخمسة:

1- مَكَّنَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَصْرَةِ
المؤمنين، قال تعالى:

{هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا
فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} الأنفال

2- ومكّن داوود عليه السلام بالجهاد والصناعات الحربية، قال
تعالى:

{فَهَيَّرَ مُوَهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}

3- ومكّن لسليمان عليه السلام بوراثة الملك، قال تعالى:
{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ}

4- ومكن لذي القرنين بالعلم، قال تعالى:

{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} قال ابن عباس:
السَّبَبُ الْعِلْمُ

5- ومكّن ليوسف بالولاية الاقتصادية على خزائن الأرض، قال
تعالى:

{قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}

يجب على الحركة الإسلامية أن تتجه في هذه المسارات الخمسة
نحو التمكين.

من فقه التمكين:

قال الله تعالى: {لقد أرسلنا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ
وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ
عَزِيزٌ} (الحديد: 25).

لقد بينت الآية القاعدة التي يقوم عليها الإسلام، بل كل الرسالات،
وهي الكتاب، والقوة. وقد قال ابن تيمية رحمه الله: "قوام الدين:
كتاب يهدي وسيف ينصر"، جهاد ودعوة لا ينعصران ولا يتأطران
في مضيق الحزبية، لا يمكن أن تقوم دولة إسلامية بدون مجتمع
إسلامي، ولا يمكن إيجاد مجتمع إسلامي بدون دعوة ربانية،
والدعوة الربانية تحتاج إلى دعاة ربانيين يسلكون في دعوتهم
التصفية والتربية:

تصفية الإسلام من يدع الزيادة والنقصان، التربية والتزكية الربانية
للمجتمع على هذا المنهج الرباني الذي لم تفسده مزايدات
الجماعات الإسلامية واجتهاداتهم الحزبية، فنعود لأصول الإسلام
وليس لأصول الجماعات.

الإعداد والتربية:

المناهج الإعدادية التربوية لا تكفي بدون تحقيق الشوكة والنكابة
وإلا ستتحول الطليعة إلى خرفان مسمنة يرزجها الطواغيت متى

أرادوا في السجون ويسوقونهم إلى حبال المشنقة ولن يجدوا لأنفسهم حتى البواكي.

والنكاية لا يمكن أن تكون بدون إعداد، والإعداد يجب أن يكون بالقوة المتاحة لا المكافئة، ولكن أغلب الجماعات تصرف أكثر جهدها للإنجاز وقليل من الجهد التافه يصرف إلى الإعداد. لن يكون لدى الإسلاميين دولة ظاهرة إذا لم يكن لهم دولة عميقة، ولن يكون لهم دولة عميقة إلا بالتغلغل في مفاصل القوة وخوض معركة لا هواده فيها في تفكيك الدول العميقة للطغاة واستبدالها بكوادر تكون الطابور الخامس لنصرة المشروع الإسلامي وتمكينه. قال تعالى:

{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} الأنفال
نتيجة الإعداد إحداث الرهبة للأعداء والمنافقين، فإذا كان إعدادنا لا يرهبهم، فما قمنا بالأمر حقاً.

جهاد الأمة وجهاد العصابة في طريق التمكين إستراتيجية جهاد العصابة، لا تعرف الثبات ولا الاستقرار في مكان دون مكان، تعتمد أسلوب الكرّ والفرّ، ومن ثم التخفي والموارة، لا تبالي لو رمت بسهامها في أكثر من اتجاه وعلى أكثر من جبهة، لا تحسب للعواقب والمآلات حساباً ذا بالٍ إلا فيم يتعلق بسلامة وحركة العصابة ذاتها. إستراتيجية جهاد العصابة هي الخيار الأسهل بالنسبة للمقاتلين والمجاهدين؛ لأنه لا يترتب عليها مسؤوليات ومهام كبيرة يلتزمون بها نحو الشعوب، والمجتمع المسلم ومؤسساته، ونحو قيام دولة راشدة عادلة قوية لها مؤسساتها ومرافقها وأهدافها، وبالتالي فهي - أي إستراتيجية جهاد العصابة - لا تصلح لقيام مشاريع كبيرة

ومهمة - حتى لو رفعتها كشعار - كقيام دولة إسلامية تحكم بما أنزل الله، لها مؤسساتها ومرافقها المدنية والاجتماعية، ولو حاولت ستفشل، كما فشلت في أكثر من موقع في واقعنا المعاصر. إستراتيجية جهاد العصاة قد تترك آثاراً، لكنها لا تُزيل عروشاً، ولا تقيم دولاً.

إستراتيجية جهاد العصاة لا تكثرث للحاضنة الشعبية كثيراً، فهي لا يهّمها من هذه الحاضنة الواسعة والضخمة سوى أن تنتقي لنفسها منها بضعة أفراد، تنطلق بهم نحو أهدافها، وتشتيتهم بحسب تشتت سهامها، وعدد جبهاتها!

وهذا بخلاف ما عليه إستراتيجية جهاد الأمة، فإستراتيجية جهاد الأمة تعتمد على الجهاد بالأمة ضد أعداء الأمة، الجهاد بالشعوب المسلمة - كل الشعوب المسلمة - ضد الطغاة الظالمين، وأنظمتهم الفاسدة الفاجرة.

إستراتيجية جهاد الأمة تعتمد على تشكيل الجيوش المسلمة المعلنة، تستمد عناصرها من مجموع القادرين من الشعوب المسلمة، والمنظمة تنظيماً حديثاً ومتطوراً، لتقوم بمهامها في الذود عن الدين والديار والحرمان، لا تعرف أسلوب الكرّ والفرّ، ومن ثم التخفي عن الأنظار!

إستراتيجية جهاد الأمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمطالب وأمال الشعوب وما تصبو إليه، كقيام دولة راشدة عادلة قوية لها مؤسساتها ومرافقها المدنية والعسكرية، وبالتالي فإن هذا البُعد معتبر جداً - في إستراتيجية جهاد الأمة - في كل خطوة من خطواتها، وفي كل مرحلة من مراحلها، تحسب للعواقب والمآلات حساباتها الجيدة والمُحكّمة.

إستراتيجية جهاد الأمة لها مسؤولياتها الجسام نحو مجموع أبنائها ومصالحهم وديارهم وبلدانهم ومقدساتهم، كما تتحمل مسؤولياتها الأخلاقية والشرعية نحو جميع شعوب العالم، وبالتالي فهي - أي إستراتيجية جهاد الأمة - من هذا الوجه صعبة جداً تحتاج إلى جهدٍ

كبير، وإلى كوادر كبيرة وكثيرة تتضافر عليها مجموع قوى أبناء الأمة.

إستراتيجية جهاد الأمة والشعوب معنيّة بإزالة عروش الطغاة الظالمين وإقامة دولة العدل والحق، فمهمّتها لا تقتصر على المناوشات أو الهدم وحسب، ومن ثم بعد ذلك فليكن ما يكون من دون الالتفات إلى العنصر الأهمّ، عنصر البناء، بناء الدولة العادلة الراشدة القوية.

إستراتيجية جهاد الأمة والشعوب، قائمة على ترتيب الأولويات في تحديد العدو الأشد خطراً، ومن ثم دفعه ودفع خطره عن البلاد والعباد، وهذا قد يستدعي منها نوع تحالف أو تصالح مع فريق دون فريق، لتتفرغ للعدو الأشد شراسة وخطراً، فهي - أي إستراتيجية جهاد الأمة - لا تنهج سياسة استعداد العالم، كل العالم، وتجعلهم جميعاً في مصاف واحد من العداوة، ومن ثم تخوض معهم مجتمعين معركة - في وقت واحد - تعرف نتائجها المدمرة على دولة الإسلام ومؤسساتها وعلى الشعوب المسلمة مسبقاً.

والسنة قد أشارت لشيء من هذا الفقه الهام، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "ستصالحون الروم صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائهم، فتسلمون وتغنمون"، وفي رواية: "ستصالحون الروم صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم، فتنتصرون، وتغنمون، وتسلمون" صحيح سنن أبي داود.

فهناك عدو من وراء الروم - ويحتمل أن يكون جزءاً منه من وراء المسلمين كما أفادت بذلك الرواية الأخرى - شديد الخطر والعداوة لا يمكن الوصول إليه ومن ثم دفعه ودفع شره، إلا بعد نوع تصالح وتنسيق مع نصارى الروم.

وفي غزوة الخندق، استنشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، في أن يشاطر بعض الأحزاب التي شاركت في تطويق المدينة وحصارها، تمر المدينة، مقابل أن يفكوا ارتباطهم وتحالفهم مع

مشركي قريش، وينفضوا عن القتال ومحاصرة المدينة، وهذا كله من قبيل العمل بالفقه المشار إليه أعلاه. فإن قيل: هل يُفهم مما تقدم أعلاه أنّ إستراتيجية جهاد العصاة مرفوضة أو مستهجنة على الإطلاق؟

أقول: لا، بل قد تتواجد - في مرحلة من المراحل - ظروف موضوعية تبرّر وجود من يُقاتل على طريقة حرب العصابات، معتمداً إستراتيجية جهاد العصاة، وقد تواجد في التاريخ الإسلامي شيء من ذلك كما في جهاد الصحابي الجليل أبي بصير ومن معه، لما اضطرتهم الظروف الناجمة عن صلح الحديبية أن يشكّلوا بأنفسهم جبهة مستقلة ومتنقلة، تعتمد أسلوب الكر والفر بعيداً عن دولة الإسلام والتزاماتها، المتمثلة في المدينة المنورة، والتي كانت تمثل إستراتيجية جهاد الأمة.

لكن ما إن تزول تلك الظروف الموضوعية التي أفرزت تلك المجموعة التي تقاتل على طريقة إستراتيجية جهاد العصاة، ويتعين على تلك المجموعة أن تنخرط وتدخل في المشروع الأضخم والأشمل، مشروع إستراتيجية جهاد الأمة والشعوب، وهذا الذي حصل مع الصحابي أبي بصير رضي الله عنه ومن معه، فما أن زالت تلك الظروف الموضوعية التي أفرزتهم وأبعدتهم عن إستراتيجية جهاد الأمة، إلا وسرعان ما انضموا إلى الجسد الأكبر للأمة، ليجاهدوا معها جهادها الأكبر وفق إستراتيجيتها.

إستراتيجية جهاد العصاة حالة استثنائية طارئة توجد ظروف موضوعية معينة، فإذا ما زالت تلك الظروف ووجدت إستراتيجية جهاد الأمة والشعوب، بطلت إستراتيجية جهاد العصاة، ودخلت وجوباً في الإستراتيجية العامة لجهاد الأمة، فإن لم تفعل، فحينئذٍ قد تُفسد أكثر مما تُصلح، إذ لا يمكن أن تُفعل في زمان واحد ومكان واحد إستراتيجية جهاد الأمة، وإستراتيجية جهاد العصاة معاً!

لا يجوز أن تكون إستراتيجية جهاد الأمة تبعاً لإستراتيجية جهاد العصاة، أو أن تفرض العصاة على الأمة إستراتيجيتها في الجهاد

والعمل والحركة والتغيير، فَمَثَلٌ من يفعل ذلك كمثل من يُلزم الرجل الكبير بأن يرتدي ثياب الطفل الصغير، وأتَى! عندما تنهض الأمة للجهاد والتغيير يجب على من يجاهد على طريقة إستراتيجية جهاد العِصَابَة أن يتنحى عن الطريق، وأن يعطي الفرصة كاملة للأمة والشعوب أن تمضي في طريقها نحو أهدافها، وإلى نهايته من دون أن يُحدث أي حدثٍ، حتى لا يفسد على جهاد الأمة خطتها وإستراتيجيتها وطريقتها في العمل والتغيير. الطغاة الظالمون في كثير من الأحيان لا يستطيعون مواجهة إستراتيجية جهاد الأمة والشعوب، ولكي يفسدوا على الأمة خطتها في الجهاد والتغيير يستفزّون ويستجرون الذين يُقاتلون على طريقة إستراتيجية جهاد العِصَابَة إلى الساحات والميادين ليثيروا معهم المعارك الجانبية، ويضربوهم ويضربوا معهم جهاد الأمة والشعوب، وتكون ذريعتهم في ضرب إستراتيجية جهاد الأمة والشعوب أنهم أرادوا ضرب ومحاربة من يُقاتل ويُجاهد على طريقة إستراتيجية جهاد وحرب العِصَابَات، أرادوا قتال الإرهابيين "والعِصَابَات الإرهابية"، وليس الشعوب، وهم بهذا الزعم الكاذب عساهم يستعطفون دول العالم لتقف بجوارهم في حربهم ضد الشعوب الثائرة الراغبة في التغيير! لذا إن لم يتنبه من يُجاهد على طريقة إستراتيجية جهاد العِصَابَة لهذا الجانب، وأبى إلا أن يُزاحم ويشارك إستراتيجية جهاد الأمة والشعوب في العمل والجهاد والتغيير على طريقته وفق إستراتيجيته، فهو من جهة يضر أكثر مما ينفع، ومن جهة أخرى يقدم خدمة كبيرة لظغاة الحكم المجرمين الظالمين من حيث لا يدري! لا ينبغي ولا يليق لمن يُجاهد على طريقة إستراتيجية جهاد العِصَابَة، أن يُطالب الأمة والشعوب بالجهاد والنهوض للتغيير، ثم إن فعلت الأمة ونهضت للجهاد والتغيير وفق إستراتيجيتها، زاحمها في العمل وأحدث الأحداث التي تفسد عليها خطتها وإستراتيجيتها في الجهاد والعمل والتغيير، وألزمها بإستراتيجيته وطريقته في العمل، فإن لم تفعل، ولن تقدر على أن تفعل، أساء بها الظنون

ورمى بفشله على الأمة والشعوب، والحق أن ما أصابه، وأصاب الأمة بسببه، هو من عند نفسه.
(أبو بصير الطرطوسي)

كيف نقيم الشريعة في طريق التمكين كيف نقيم الشريعة؟

الشريعة مبنية على تحقيق مصالح الناس في المعاش والمعاد، إذاً هي لحل مشاكلهم وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة. يقول الإمام مالك: "أينما كانت المصلحة فثمّ شرع الله"، لذلك كانت.

من أسباب فشل الحركات الإسلامية في تسويق مشاريعهم هو طرح المشروع على أنّه قضية عقدية محضة يترتب عليها كفر وإيمان، فيقومون بابتزاز العامة والتعامي عن حل مشاكل الأمة برؤية شرعية مقنعة.

لا نقول: الشريعة الإسلامية صالحة لكلّ زمان ومكان، بل هي مصلحة لكل زمان ومكان.

الملاحظ أن دعوة الأنبياء عليهم السلام اقترنت دائماً بحل مشاكل الأمة التي يدعونها وإقامة الشريعة عن طريق حلّ المشاكل، لذلك كانت:

1- دعوة ذو القرنين عن طريق حلّ مشاكل الشعوب، لم يتحدث القرآن عن دعوة مجردة، وإتّما عن دعوة مع حلّ المشاكل المعضلة، قال تعالى: {قَالُوا يَا ذَا الْقُرْتَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَيَّ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} (95)

2- دعوة موسى اقترنت بمشكلة سياسية، قال تعالى: {أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِيَّايَ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّايَ أَتَيْكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}.

3- ودعوة لوط اقترنت بمشكلة أخلاقية، قال تعالى: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}.

4- ودعوة يوسف اقترنت بمشكلة اقتصادية وآمن غذائي، قال تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} (55).

5- ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى كل أنبياء الله اقترنت بمشكلة حضارية في أمة أمية، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

بينما طريقة التطبيق عند الجماعات الإسلامية هي
طريقة إفراز المشاكل، بل إن هذه الجماعات بحد ذاتها
تحولت إلى مشكلة بكثرة خلافاتها وصراعاتها.

التكليف متوَّظ بالاستطاعة والتمكين

بين العجز الجزئي والعجز الكلي

إنَّ الله تعالى قد أخبر في غير موضع أنَّه لا يكلف نفسًا إلا وُسْعَهَا، كقوله: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}، وقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، وقوله: {لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا}، وقوله: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا}.

• وأمر بتقواه بقدر الاستطاعة فقال: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}، وقد دعاه المؤمنون بقولهم: {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا أَوْرَاقَنَا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}، فقال: [قد فعلت] فدلت هذه النصوص على أنه لا يكلف نفساً ما تعجز عنه، خلافاً للجَهْمِيَّةِ المَجْبِرَةِ، ودلت على أنه لا يؤخذ المخطئ والناسي خلافاً للقَدْرِيَّةِ والمَعْتَزَلَةِ، وهذا فصل الخطاب في هذا الباب.

• فالمجتهد المستدلّ من إمام وحاكم وعالم وناظر ومُفْتٍ، وغير ذلك، إذا اجتهد واستدل فاتقى الله ما استطاع، كان هذا هو الذي كلفه الله إيّاه، وهو مطيع لله مستحق للثواب إذا اتقاه ما استطاع، ولا يعاقبه الله البتة خلافاً للجَهْمِيَّةِ المَجْبِرَةِ وهو مصيب، بمعنى: أنه مطيع لله، لكن قد يعلم الحق في نفس الأمر وقد لا يعلمه، خلافاً للقَدْرِيَّةِ والمَعْتَزَلَةِ في قولهم:

كل من استفرغ وسعه علم الحق، فإنّ هذا باطل كما تقدّم، بل كل من استفرغ وُسْعَهُ استحق الثواب.

• وكذلك الكفار، من بلغه دعوة النبي ﷺ في دار الكفر، وعلم أنه رسول الله فأمن به، وآمن بما أنزل عليه، واتقى الله ما استطاع، كما فعل النجاشي وغيره، ولم تمكنه الهجرة إلى دار الإسلام، ولا التزام جميع شرائع الإسلام؛ لكونه ممنوعاً من الهجرة وممنوعاً من إظهار دينه، وليس عنده من يعلمه جميع شرائع الإسلام، **إف هذا مؤمن من أهل الجنة.**

• كما كان مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون، وكما كانت امرأة فرعون، بل وكما كان يوسف الصديق عليه السلام مع أهل مصر؛ فإنهم كانوا كفاراً، ولم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام، فإنّه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: {وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا}.

• وكذلك النجاشي، هو وإن كان ملك النصارى! فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، بل إنّما دخل معه نفر منهم، ولهذا لما مات لم يكن هناك أحد يصلي عليه، فصلي عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، خرج بالمسلمين إلى المصلى فصفّهم صفوفًا، وصلى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات وقال:
(إِنَّ أَخًا لَكُمْ صَالِحًا مِنْ أَهْلِ الْحَبْشَةِ مَاتَ).

• وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك! فلم يهاجر، ولم يجاهد، ولا حج البيت، بل قد روي أنّه لم يصل الصلوات الخمس، ولا يصوم شهر رمضان، ولا يؤدي الزكاة الشرعية؛ لأنّ ذلك كان يظهر عند قومه فينكرونه عليه، وهو لا يمكنه مخالفتهم.

• ونحن نعلم قطعًا أنّه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن! والله قد فرض على نبيه بالمدينة أنّه إذا جاءه أهل الكتاب لم يحكم بينهم إلا بما أنزل الله إليه، وحادّره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه.

• وهذا مثل الحكم في الزنا للمُخْصِنِ يَحَدُّ الرجم، وفي الديات بالعدل، والتسوية في الدماء بين الشريف والوضيع، النفس بالنفس والعين بالعين، وغير ذلك.

• والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم بحكم القرآن؛ فإن قومه لا يُقرُّونه على ذلك، وكثيرًا ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضيًا بل وإمامًا وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها فلا يمكنه ذلك! بل هناك من يمنعه ذلك! ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها! وعمر ابن عبد العزيز عُودي وأوذي على بعض ما أقامه من العدل، وقيل: أنّه سُمِّ على ذلك.

• فالنجاشي وأمثاله |سعداء في الجنة!| وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدرّون على التزامه، بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها.

قاله العلامة أحمد بن تيمية الحرّاني الحنبلي - يرحمه الله - كما في ((مجموع فتواه، 19 / 216 وما بعدها)).

التعجل في المواجهة

في بداية التجميع والإعداد للقاعدة الصلبة يجب أن تكون الرعاية بعيداً عن أعين المتربّصين والضجيج الإعلامي لكي لا يفسدوا المشروع: {وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا}.
يجب على القاعدة الصلبة المؤمنة المستضعفة أن لا ترمي بكل أوراقها في مواجهة الباطل فتكون أمام خيارين لا ثالث لهما: {إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا} (20)

المواجهة يجب أن تُحدّد بثلاث أنواع من الفقه:

1. فقه الأولويّات: هل تم اختيار المواجهة مع عدوّ تشكل مواجهته أولويّة لنا على غيره من الأعداء ؟
2. فقه الواقع لحالنا وإمكانيّاتنا وإمكانيّات العدو، وهل الأمر ضمن استطاعتنا؟
3. فقه المآلات: وهو النظر فيما يترتب على أيّ قرار بالمواجهة من تبعاتٍ ممكنة أن نتحمّلها.

حتى تنجح الدعوة لا بُدّ من اكتشاف الطاقات واستثمارها: فراسة اكتشاف الرجال لا يهتدي إليها إلا أولو البصيرة والفهم (الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة) حديث صحيح هناك كثير من الطاقات المهدورة أو المبعدة والمعتم عليها من الصفوف الأولى في الحركات الإسلاميّة التي لا تريد مغادرة الأضواء وفسح المجال للدماء الجديدة لتأخذ دورها، لذلك القضية تحتاج إلى اكتشاف الطاقات الكامنة والاقتصاد في الطاقات المهدورة وتشغيل الطاقات المعطلة وترتيب الطاقات العشوائية وفق الاختصاص.

لذلك تجد في السيرة النبوية: مُصعبٌ للدعوة، وُخَيْفَةُ للأسرار، وأبيٌّ للقرآن، وُحَسَّانٌ للشعر والأئمّة، وُعَمَرٌ وأبو بكرٍ للشورى، ومعادٌ للعلم، وزَيْدٌ للفرائض.

لقد كان عمر رضي الله عنه يتمنى أن يكون عنده ملئ بيت كبير رجال مثل أبي عبيدة عامر بن الجراح لله دره كيف أدرك أن امتلاك المعادن النفيسة من الرجال أهم من امتلاك المعادن النفيسة من الذهب والفضة وهذا ما لا يدركه قادة الجماعات الغسلامية فكم من رجال دفنا وكم من عقول قتلنا لأنها لا تسرع في شهواتنا ولا تنضوي تحت أحزابنا، فكم وكم وضعنا الرأس مكان الذنب ووضعنا الذنب مكان الرأس إذا صارت أذناننا رؤوساً لنا صرنا بحكم الطبع نمشي إلى الورا.

ثانياً: فقه الاختلاف

من خصائص الدعوة الربانية والأمة الربانية احتمال الاختلاف المعترف، الاختلاف الذي لا يؤدي إلى الافتراق. سعة الفقه وأوجه الاجتهاد المعتمدة فيها متسع لتبني رؤية تستند إلى وجه من الوجوه. والخيارات الفقهية مما يميز الإسلام السني. وليس عيباً تلك السعة فهي عامل إثراء للفقه وإتاحة مزيد من الخيارات للحركات الإسلامية للتعامل مع واقع شديد التعقيد وسريع التغيير، إنما العيب أن تتضارب فيما بينها، وأن تغيب إرادة التعاون والتكامل بما لا يفوت على الأمة مصلحة. وإنما جاء سوء النظر من استخفاف البعض بخيارات الآخر، وتحميله مآلات اختياراته دون استكمال اختبارات الخيار الفقهي على محكات تجارب لما تنته بعد. وفيما بين ابن المبارك والفضيل بن عياض درس ونموذج للاقتداء دون نكير أو تبكيت كل في مساره يدعم الآخر. آفة الحكم على المواقف والخيارات رغبة محمومة لدى كل الأطراف في التنقيص والتبخيس، وليس الوقوف على قواسم مشتركة.

ولعل حالة التشظي التي تعيشها الأمة مما تنتج تلك الفوضى في الأحكام على مسارات واتجاهات دون محاولات لتفهم الدوافع والأسباب.

ولعل أيضاً حالة التسبب من تصدر كل أحد للرأي والنظر هو ما يشغب على أكابر العلماء في إشاعة وإعلان ونشر آراء واجتهادات معتبرة لو تحقق لها ذلك، لقطعت الطريق على حالة السيولة في الرأي لدى كل أحد.

البحث عن فقه قطعي الأحكام أحدي الحكم ضرب من الخيال. الاختلاف سنة ربّانية، كان شيخ الإسلام ابن تيمية مع شدة اختلافه مع الأشاعرة والصوفيّة قد طوى بساط الجدل لما داهمهم خطر التتار، وجاهد معهم في "شقح" من أعمال دمشق وسماهم الطائفة المنصورة. (ذكر ذلك الإمام ابن كثير في تاريخه).

عندما يأتي من يريد نسف المذاهب ويقول لنا (الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة) نقول: أول من يدخل بالسلف هم الأئمة الأربعة، وكان السلف لم يحصل بينهم خلاف! فإذا جئت له بآراء السلف انتقى منها رأياً يريد أن يحمل الأمة عليه، وقد وقع الاختلاف كثيراً بين الصحابة: اختلفوا في مسألة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم هل توفي أم أنه ذهب ليناخي ربه، ثم اختلفوا على مكان دفنه، ثم اختلفوا على تغسيله، ثم اختلفوا على ميراثه هل يوزع أم يكون صدقة، ثم اختلفوا على الإمامة من بعده هل هي في المهاجرين أم في الأنصار، ثم اختلفوا على بعث أسامة، ثم اختلفوا على محاربة المرتدين.

صلى الشافعي الصبح في مسجد أبي حنيفة الصبح فلم يَفُتَّ ولم يَجْهَر بِبِسْمِ اللَّهِ تَأَدِّبًا مع أبي حنيفة رحمهما الله [طبقات الحنفية 433/1].

قال القرطبي: "كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم يصلون خلف أئمة أهل المدينة من المالكية وإن كانوا لا يقرؤون البسمة لا سرّاً ولا جهراً، وصلى أبو يوسف خلف الرشيد وقد احتج وأفتاه مالك بأنّه لا يتوضأ فصلى خلفه أبو يوسف ولم يعد" [الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 375/23].

قال النووي: "ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصّاً أو إجماعاً أو قياساً جلياً" [شرح النووي على صحيح مسلم 24/2].

أسباب وقوع الخلاف:

أغلب أدلة الشرع هي أدلة ظنيّة الدلالة، والاختلاف في فهم معناه وارد جداً:

1- اختلاف العلماء في حُجِّيّة بعض المصادر الفقهية أو اختلافهم في رتبة الاحتجاج بها كما في خلاف الفقهاء في حجية القراءات الشاذة والحديث المرسل والاستحسان وشرع من قبلنا وإجماع أهل المدينة.

2- اختلافهم في فهم النصوص، كما في قوله: {أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا} [المائدة:6]. ففسرها الجمهور بأنّها الجماع، ولم يجعلوا لمس المرأة مما ينقض الوضوء، فيما أخذ الشافعي بظاهرها فجعل لمس المرأة ناقضاً للوضوء.

3- الاختلاف في فهم علّة الحُكْم كما في الخلاف في مشروعية القيام للجنّازة هل هو للمؤمن أم للكافر؟ وهل يقام تعظيماً للملائكة أم لِهَوْلِ الموت؟ أم أنّه خاصّ بالكافر حتى لا تعلق جنازة الكافر رأس المسلم؟ وكما في علّة سهم المؤلّفة قلوبهم هل هو للتأليف أم لدفع شرّهم عند ضعف المسلمين؟

4- من أسباب الاختلاف عدم بُلُوغِهِمُ الدَّلِيل ، مثاله: خَفِيَ عَلَى عمر حكم دخول أرض الطاعون، بل وعلى كثير من الصحابة، فاختلَفوا حتى أخبرهم عبد الرحمن بن عوف بقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك.

5- من أسباب الاختلاف عدم الوثوق بصحة الدليل الذي عند الآخرين، فقد يُضَعَّفُ العالمُ المخالفُ الحديثَ في حين يُصَحِّحُهُ الآخرون، لاختلاف العلماء في تعديل أحد الرواة، أو لعلَّة يراها في السند أو المتن تجعل الرواية شاذَّة أو لغير ذلك من أسباب رد الرواية مما هو مسطر في كتب علم الحديث.

ومن ذلك قصة عمر مع فاطمة بنت قيس حين رد حديثها في سكني ونفقة المطلقة طلاقاً بائناً بقوله: (لا نترك كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت) [مسلم ح1480].

6- من أسباب الاختلاف : الاختلاف في دلالات الألفاظ والنصوص لكون اللفظ مشتركاً أو مجملاً ، ومثله قد وقع من الصحابة عام الخندق كما في الصحيحين عندما قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: ((لا يُصَلِّينَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا في بني قريظة)) [البخاري ح946، ومسلم ح1770]. فتمسك بعضهم بظاهر النص ففاتهم الصلاة، وتمسك الآخرون بمفهوم النص والمراد منه وهو الإسراع، فصلوا وهم في الطريق، قال ابن عمر: (ولم يُعَنَّف النبي صلى الله عليه وسلم واحداً منهم).

وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية الحث في كتابه "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"
فلا يجوز للأمة أن تُوجد أحزاباً وجماعةً بناءً على اختلافها في مسائل ظنيَّة.

ثالثاً: فقه التزكية

قدم البيان الإلهي التزكية على العلم لأنّ التربية الأخلاقيّة هي المِلَاطُ الذي يمسكُ يَلِيناتِ الجماعة من التفكّك والتبعثر، والتنظيم بدونها عرضةٌ للانحياز والانشقاق والانفراط. القاعدةُ الأخلاقيّةُ هي التي عليها تكسر المصائب والابتلاءات. هناك شكوى في الوسط الإسلاميّ من طريقة تعبير أبناء التنظيمات الإسلاميّة عن نقدهم وآرائهم التي تكاد لا تخلو من كلمات نابية وبذاءة واضحة في حق المخالف، فلا تكاد تُجري معه شيء من الحوار إلا وسارع ليرميك بالإرجاء أو الكفر أو الكذب أو أنّك ترمي بالشبّه، وظاهرة التطاول على علماء الأمّة صارت أمراً مستمراً، فهل يا ترى غلبت علينا التربية الحزبيّة وجفّت فينا التربية الأخلاقيّة؟ وهذا ملاحظٌ حتى في المناهج التي تدرّس عند الحركات الإسلاميّة، فلقد اطلّعتُ على كتاب لم يكشف المؤلف عن نفسه أحصى فيه مثالب التيارات الإسلاميّة المخالفة له وتقرّب إلى الله في النيل من علماء الأمّة بأبشع الكلمات، لذلك كان لا بُدّ أن تبدأ التربية من حيث بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يُعيدَ قادة العمل الإسلاميّ النظَرَ في طريقة إعداد أفرادهم قبل أن يستفجِلَ الخطرُ.

قال تعالى:

{هو الذي بعث في الأمّيين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويُزكّيهم ويُعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ}.

من كلام الشيخ محمد أحمد الأنصاري (أستاذ الإسلاميات بجامعة بهاولبور - باكستان):

إنّ اليهود والنصارى غزوا أرضنا، وإبليس وجنوده غزوا قلوبنا، والله لا يُعيدُ لهذه الأمّة أرضها حتى تعود الأمّة بقلبها لربها، فما دامت القلوب بحبّ الدنيا مُغتَلّة، فما تزال الأرضُ مُختلّة، لأنّ جميع الموازين مُختلّة.

* فمن بدأ بعدوّ القلب قبل الأرض تربّى على أربع قبل أربع، فتنشأ فيه أربع:

- تربّى على الرحمة قبل الغضب (فيضبطها)
 - تربّى على الحب في الله قبل البغض في الله (فيضبطه)
 - تربّى على الذلة على المؤمنين قبل العزة على الكافرين (فيضبطها)
 - تربّى على الولاء قبل البراء (فيضبطها) .
- مِن أَكْثَرِ مَا يُضَرُّ بِالْجِهَادِ مَنْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ وَبَيْنَ اسْتِعْدَاءِ الْأَعْدَاءِ: الْأَوَّلُ دِينٌ ، وَالثَّانِي سِيَاسَةٌ، فَتَنْشَأُ فِيهِ أَرْبَعٌ هُنَّ صَوَارِيخُ الْقُلُوبِ وَمَغْذِيَّاتُ الدِّينِ:
- 1- يعفو عن ظلمه
 - 2- يعطي من حرمه
 - 3- يصل من قطعه
 - 4- يحسن إلي من أساء إليه.

فيمشي في الناس داعياً لا قاضياً، يضحى بمُراده من الناس لمراد الله منهم (وهي الهداية) فيهدي به الله من شاء من عباده.

* ومن بدأ بعدوّ الأرض قبل القلب تربّى على أربع قبل أربع، فتنشأ فيه أربع :

- تربّى على الغضب قبل الرحمة (فيمنعها)
- تربّى على البغض في الله قبل الحب في الله (فيمنعها)
- تربّى على العزة على الكافرين قبل الذلة على المؤمنين (فيمنعها)
- تربّى على البراء قبل الولاء (فيمنعها)

فتنشأ فيه أربع:

1- التفسيق 2- التبديع 3- التكفير 4-

التفجير
فيمشي في الناس قاضياً لا داعياً (كأنه إله) يُضلُّ به الشيطان أكثر مما يريد هو إصلاحه، وأفسد من حيث أراد أن يُصلح.
السُّبَابُ والشتائمُ التي تنهال في تعابير المتديّنين عندما يرُدُّون على المخالفين لهم دليلٌ على وجود الحلقة المفقودة في بناء الإنسان الرّبّانيّ، ألا وهي التزكية التي قدّمها البيان القرآني على العلم، تسمع كلام لبعض من ينتسبون للدّعوة والعلم فتترحم على الحطيئة ، والمسلمون في تضييع هذا الجانب بين طرفي نقيض ، بين مشوّه له بالدّخائل والبدع ، وبين مقرّم له بالإهمال، وقد عبر عن ذلك أحد العلماء بقوله : أسيّفتُ كما أسيّفتُ غيري لصنفيين من الناس:

أ- صنفتُ تلمسُ في قلبه عاطفةً حارّةً، ورغبةً في الله عميقة، وحبّاً لرسوله بادياً، ومع ذلك تجده ضعيف البصر بأحكام الكتاب والسنة، يعلم منها قليلاً ويجهل منها كثيراً، ويغريه بالتعصّب للقليل الذي يعلّمه أنّه يأنس من نفسه صدق الوجهة، وقوّة محبة لله ورسوله ربما افتقدها في غيره فلم يشعر بها.

ب - وصنفتُ تلمس في عقله ذكاءً ، وفي علمه سعة ، وفي قوله بلاغة ، يعرف الصّواب في أغلب الأحكام الشرعية، ويؤدي العبادات المطلوبة منه أداءً لا بأس به ، ولكنه بارد الأنفاس ، بادي الجفوة، غليظ القلب ، يكاد يتمنى العثار لغيره، كي يُنذد بأغلاطه، ويستعلي هو بما أوتي من إدراك للحق، وبصر بمواضعه من كتاب وسنة.

الوهن والغثائية

عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها، قال: قلنا يا رسول الله: أَمِنْ قِلَّةِ بنا يومئذٍ؟ قال: أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غناء كغناء السيل، ينتزع الله المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن، قال: قلنا وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت". وهذا الإسناد حسن، أخرجه أحمد في مسنده.

مرحلة الغنائية هي المرحلة التي يتضخم فيها الكم على حساب النوع، لذلك المشكلة لا تكمن في نقص العدد أو الموارد، بل في هشاشة المضمون الأخلاقي والعقدي والإيماني عند الأفراد، ولن يجدي عند ذلك توحيدها لأنّ اللينة الهشة عندما تتجمّع لن تشكل أكثر من جدارٍ هين.

وحالة الوحدة تحمي اللينة ذات الوجوه السيئة من أربع جوانب وتبقى مكشوفة من وجهين، وجه يحمي الظهر ووجه يواجه الخطر مع البنيان المرصوص.

وجه الشبه بين الأمة وغناء السيل:
الأمة اليوم لا مضمون لها، وغناء السيل كذلك فقاعات لا مضمون لها.

الأمة اليوم لا اتجاه لها، وغناء السيل يمضي مع السيل بدون اتجاه.
الأمة اليوم لا وزن لها، وغناء السيل يطفو على الماء لا وزن له.
الأمة اليوم مجموعة غير متجانسة من المناهج، وغناء السيل عناصر غير متجانسة من المهملات.
الأمة اليوم مسيرة من أعدائها، وغناء السيل يسيره السيل.

من سمات الحالة الغنائية للأمة:

- 1- تعدد الرايات والأعلام وضياع الغايات
- 2- ضخامة الأعداد وضآلة الإعداد
- 3- التشدد في الأمنيات والتفلت في الإيمانيات
- 4- إصدار الاستعراضات وغياب المخططات

- 5- غياب القيادة وتقليد الرويبيضة
- 6- الاختلاف على المفقود وتضييع الموجود
- 7- استفتاء الرؤوس الجهّال والحجر على العلماء

خامساً: فقه الواقع

الفتاوى المضطربة والمواقف السياسية المرتجلة ناشئة عن نقص في المعلومات أو تضخيم في المعلومات، لذلك كان فقه الواقع والمناطق أحد أهم أركان الفتوى الصحيحة. الغرب اليوم يُسَخِّرُ مراكز أبحاث ودراسات وأجهزة استخبارات لفهم الواقع ونحن لا نزال نعتمد على انطباع الفقيه وإلهام السياسي! من مشاكل الجماعات الإسلاميّة هو اشتداد نكير على بعضهم في واقع لم يعايشوه، فيحكمون على إخوانهم من خلال واقعهم هم لا من خلال الواقع الذي يعيشه إخوانهم، لذلك تجد أنّ الدافع للسُّلُوق بالألسُن الجِدَادِ هو التنافس المنهجي والتشهير بالأخطاء أكثر منه النصح والإرشاد.

الحكم على الأشياء فرع عن تصورها، عندما تجمع صورة مشوّهة عن الإسلام بالاستقاء من منابع المسمّمة، عندها ستعطي وصف الحكم الإسلاميّ لكل المشوهين، لأنّ الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

كيف تنظر الحركات الإسلاميّة إلى واقع الأمّة الحركات الإسلاميّة غير متفقيّة على أمر وهو وصف حال الأمّة. هل نحن نعيش حالة استعمارية حقيقيّة كاملة؟ أم حالة تحرّج كاملة؟ أم بمنزلة بين المنزلتين؟ أم بحالة أسوء من حالة الاستعمار المباشر؟

لو نتفق كأمة أنّنا نعيش بحالة استعماريّة وأنّ هؤلاء الحكام مناديب استعمارية مزايده في عسفها على أسيادها. فالمفروض أنّ الأحزاب هي جيوب المقاومة التي يجب أن تنفّذ خطة إستراتيجية واحدة تستخدم فيها الأيدلوجية المناسبة في كل حالة أو مرحلة، لكن الذي نشاهده هو غياب حقيقي عن الحالة وتصادم بين المشاريع وجرّ الأمّة لصراعات حزبيّة، تنفق الأحزاب من الجهد في إفشال بعضها أضعاف ما تنفقه مع الأنظمة الاستعمارية. وينقسم المتحزبون إلى قسمين:

• قسم لا يصنفها بالاستعمارية ويدخلها بالخصومة السياسية، فيستدعي الأمّة من باب صندوق الاقتراع ويتعامل مع الآخر كخصم سياسي ويتشارك معهم في مشاريع تظهره بمظهر المتواطئ ويتقبل الهزيمة، لكن ما إن يتمكن هذا القسم من الوصول إلا وينقلب الخصوم السياسيون إلى حالة الطوارئ ضباطاً وعسكرياً، ويشنّون حرباً عليه ويعزلونه بعد أن يذيقوه الذلّ والهوان.

والغريب أن التجربة تتكرّر!

• وآخر يصف الحالة بالاستعمارية أو أكثر، لكن تعامله معها يأخذ جانب التضخيم الحاد، فيتعامل مع معارضيه بالنفي من

المشروع والتخوين والتكفير، وعنده تضخيم للنفس وتقزيم للآخر، وقابل للنفخ بسهولة، حتى إن اعتقد أنّه تمكّن يتم فرقعته والتخلص منه، والدلائل دول كرتونية قامت تمّ نسفها في أيام، ومع ذلك تتكرر هذه التجربة!

هل نجحت التجربتان للوصول للتمكين الذي نعتقد أنّها من خلاله تستطيع الاستقرار وبناء مشروعها؟

نجزم أنّه لم تنجح أي من المجموعتين من الاستقرار أو البقاء والاستمرار في المشروع بل عادت خطوات إلى الوراء، لتعود إلى نقطة ما وراء الصفر وهي مثقلة بتبعات الفشل وحالة من النكران ودعوى المظلومية والمؤامرة.

فنحن أمام عدة تجارب فاشلة وتكرارها هو تكرار فشل جديد، إن جمعت نفس المعطيات ستأتي نفس النتائج، الإدارة الفكرية الناجحة هي القدرة على التعاطي مع أقصى حالات الطوارئ، ليس من تسقط أمام أول اختبار!

نحن قرييون جداً من الفكر الجهادي لأننا نضع الحالة بموقعها الاستعماري لا الخلاف السياسي، ولكن هذا الاستعمار له وسائل للسيطرة وليس عسكرياً فقط بل هي نسيج من القيود مما يجعل الحالة مركبة.

الدولة الإسلاميّة لم تحقق الانعتاق الاقتصاديّ إلا في خلافة عبد الملك بن مروان حيث استقلت الأمة بعُمّلتها الخاصّة. وهذا يجعلنا نستقرئ حاجتنا للخط السياسيّ لإلهاء الغرب وتخيينه مع استمرار العمل الجهاديّ والعلميّ والدعويّ لبناء كيان قوي غير قابل للهدم، وهذا يُعيد للأذهان مرحلة صلح الحديبية، المسلمون يبنون دولتهم ويتصلون بدول العالم، وأبو بصير وأبو جندل يوجّهون ضربات موجعة لقريش بحرب عصابة، كلا الأمرين كان مفيداً ويصنّب في صالح المشروع، ولكن لا وجه للارتباط الظاهري بينهما.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في أعلام الموقعين: ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يُحيط به علماً. والثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو قهْمُ حُكْمِ الله ورسوله الذي حَكَمَ به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده وافرغ وسعه في ذلك لم يُعدم أجرين أو أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله، وكما توصل شاهد يوسف بشقّ القميص من دُبُرٍ إلى معرفة براءته وصدقه وكما توصل سليمان صلى الله عليه وسلم بقوله: " اتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما " إلى معرفة عين الأم.

عبث في قهْمِ أحاديث الفتن يستتبّع جهلاً في فهم الواقع دأب كثير من المثقفين وطلاب العلم إلى البحث عن تفسير لما يجري لحال الأمة في أحاديث الفتن، وهذا حالنا، كلما عجزنا عن فهم ما يجري التجأنا إلى أحاديث الملاحم، بيد أن الإغراق في تحليل أحاديث الفتن وإسقاطها على الواقع للبحث عن تفسير مقنع لما يحدث، له منعكسات خطيرة خصوصاً أنك عندما تقرأ هذه الأحاديث تجدها متباينة الحال.

مرّة تتحدث عن المسلمين في حالة الوهن والضعف، ومرّة عن حالة من القوة وقيام الخلافة الراشدة، ومرّة عن عُزْبَةِ الإسلام وكثرة الفتن وتكالب الأمم، ومرّة عن فتح روميّة وبلوغ الدين ما بلغ الليل والنهار، مما يدلّ على أنّ هذه الأحاديث تبين أنّ الإسلام والمسلمين يسيرون في خط بيانيّ متعرج، تارة يكون مساره إلى الأعلى وتارة يكون مساره إلى الأسفل، وليس كما يتصور البعض أنّ الاتجاه هو إلى الهاوية بخطّ مستقيم.

وعُمْدَةُ الفهم لأحاديث الفتن هو حديث حذيفة في الصحيح (كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر) الذي

يبين حقيقة أنّ المسلمين يمرّون في تاريخهم في مراحل إدارية تتلوها مراحل إقبال وبالعكس، وهذا كله وفق سنن ثابتة لا تجامل ولا تنخرم، وليست القضية حظوظاً عمياء وخبطة عشوائية وبالقفز على الأسباب والسُنن والمغالبة.

من فقه الواقع معرفةُ الخصوم وقدراتهم قبل المواجهة قال تعالى {وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمَجْرِمِينَ} الأنعام فهو شأن عجيب ! أنّه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة! إنّ هذا المنهج لا يعني بيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب، إنّما يعني كذلك بيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضاً. إنّ استبانة سبيل المجرمين ضرورة لا استبانة سبيل المؤمنين، وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق. إنّ هذا المنهج هو المنهج الذي قرّره الله - سبحانه - ليتعامل مع النفوس البشرية، ذلك أنّ الله سبحانه يعلم أنّ إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضادّ من الباطل والشر، والتأكيد من أنّ هذا باطل محض وشرّ خالص، وأنّ ذلك حق محض وخير خالص، كما أنّ قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنّه على الحق، ولكن كذلك من شعوره بأنّ الذي يُحادّهُ ويُحاربه إنّما هو على الباطل، وأنّه يسلك سبيل المجرمين الذين يذكر الله في آية أخرى أنّه جعل لكلّ نبيّ عدواً منهم (وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدواً من المجرمين) ليستقر في نفس النبيّ ونفوس المؤمنين أنّ الذين يعادونهم إنّما هم المجرمون عن ثقة وفي وضوح وعن يقين. إنّ سُفور الكُفر والشرّ والإجرام ضروريّ لوضوح الإيمان والخير والصلاح، واستبانة سبيل المجرمين هدفٌ من أهداف التفصيل الربّانيّ للآيات ذلك أنّ أيّ غبشٍ أو شُبّهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتدّ غبشاً وشُبّهة في موقف المؤمنين وفي

سبيلهم، فهُما صفحتان متقابلتان، وطريقان مفترقتان، ولا بد من وضوح الألوان والخطوط.

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين، ووضع العنوان المُميّز للمؤمنين والعنوان المميز للمجرمين في عالم الواقع لا في عالم النظريات، فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية مَنْ هم المؤمنون مِمَّن حولهم ومن هم المجرمون، بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم، بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوان، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين، فكان من أساليبهم في محاربة الحق:

1- ومن ذلك الادعاء بأنّ دعوة الحق تتسبّب بتخلُّل آمن المجتمع: {وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهَدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحِبُّوا إِلَيْهِ ثَمَرَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (57) القصص.

2- ومنها اتّهام أهل الإيمان بتبديل الحقائق وتحريف الدين ونشر الفساد في الأرض:

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ.} [غافر:26]

3- ومن أساليبهم إتهام أهل الحق أنهم يبتغون من دعوتهم صرف وجوه الناس اليهم وكسب الجاه الدنيوي والتفضّل على غيرهم: {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ} (24) المؤمنون.

4- والاستهزاء بأهل الحق بالضحك والهمز واللّمز من دأب المجرمين:

{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ *} المطففين.

5- والإعدامات الجماعية من وسائلهم القذرة:
{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} البروج.

6- تفريق أهل الحق وتضخيم الخلاف بينهم وجعلهم أحزاباً متخاصمةً من وسائل أهل الباطل:
{إِن فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّخُّ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} (4) القصص.

7- الطُّعْنُ والتشويه في الأئمة الحاملين للدعوة لإسقاط دعوة الحق شَنَّشْنَهُ أهل الباطل:
{قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} (27) الشعراء.
{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} ﴿52﴾ أَتَوَّصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿53﴾ الذاريات.

8- الدخول في الدعوة ثم الانشقاق عنها لتشكيك الأتباع فيها من وسائل أهل الباطل:

{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (72) آل عمران.

9- الطعن في أتباع الدعوة لإسقاط الدعوة من وسائل المبطلين:
{فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ تَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} (27) هود

10- إيذاء أهل الحق في أولادهم ونسائهم من وسائل أهل الباطل في ثني أهل الحق والضغط عليهم:

{قَلَمًا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} (25) غافر
11- فرض الإقامة الجبرية ومنع الزيارات والمقاطعة من سياسة الباطل في الصدِّ عن الحق:
{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ (70)}
الحجر، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (أولم تنهك عن العالمين) قال: ألم تنهك أن تضيف أحدا؟

12- الاعتقال التعسفيّ لحجب الدعوة من وسائل أهل الباطل في الصدِّ عن الحق:
{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (30) الأنفال الإثبات هنا السجّن.

13- التهجير القسريّ والنفى من الوطن بحجج مُضحكة:
{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ۚ أَنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهِفُونَ} (56)
{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} (13) إبراهيم .

14- الاتهام بالعمالة للخارج من وسائل أهل الباطل في الصدِّ عن الحق:

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا} (4) الفرقان.

15- وتنفيذ الاغتيالات السرية وسيلة قديمة جديدة:
{قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} (49) النمل.

16- من وسائل أهل الباطل في محاربة الحق كفتُّ أتباعهم عن الاستماع لصوت الحق والتشويش عليه:

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} (26) فصلت.

فقه الواقع وعقدة الاختصاص

كلُّ يفسر المشاكل بعقدة اختصاصه:

الاقتصاديّون يُصوِّرون صِراعَ البشرِ صراعاً طَبَقِيّاً

والمؤرِّخون يُصوِّرونه استجراراً لمشاكل التاريخ إلى الحاضر

والمُتديّنون يُشخِّصونه على أنّه صراعُ أديان

والسياسيّون يُفسِّرونه صراعاً على المُلْك

وفرويد يرى أنّها الغريزة الجنسية

والجاهلون يَضيعون بين هؤلاء

وجذرُ المشكلة غيابُ الشخصيات الموسوعيّة المتوازنة في

معرفتها والمحيطه بزوايا النظر إلى الحقيقة المتطابقة بين التصوُّر

الكامل والصورة الواقعيّة الكاملة، فكثيراً ما تكون الأزمة مركّبة من

مزيج أزمت وليست أحادية المنشأ والتركيب، يغيب إدراكها عن

العقلية الاختصاصية لأنّها تنظر بعين واحدة.

سادساً - فقه الأولويّات

إنّ آفة كثيرٍ من حركات الصحوة الإسلاميّة هي غيابُ فقه

الأولويّات عنها، فكثيراً ما تهتم بالفروع قبل الأصول، وبالجزئيّات

قبل الكلّيّات، وبالمختلّف فيه قبل المتّفق عليه، وتسأل عن دم

البعوض، ودم الحسين مُهزّاق، وتثير معركة من أجل نافلة، وقد

ضيّعَ الناسُ الفرائضَ، أو من أجل شكلٍ أو هيئَةٍ، دون اعتبارٍ

للمضمون.

وأما (فقه الأولويّات) فنعني به وضع كل شيء في مرتبته، فلا

يُؤخَّر ما حقه التقديم، أو يُقدِّم ما حقه التأخير، ولا يُصَغِّر الأمر الكبير، ولا يُكَبِّر الأمر الصَّغير.

هذا ما تقتضي به قوانين الكون، وما تأمر به أحكام الشرع، أعني أن خَلَقَ اللهُ تعالى وأمره {ألا له الخلق والأمر} كلاهما يُوجِبان رعاية هذا الترتيب.

السيرة النبوية وفقه الأولويات

في العهد المكي كانت مهمّة النبي - صلى الله عليه وسلم - محصورةً في الدعوة إلى الله وتربّية الجيل المؤمن الذي يحمل هذه الدعوة بعد ذلك إلى العرب، ثم ينطلق بها إلى العالم كله، وكان تركيزه على أصول العقيدة، وترسيخ التوحيد، وعبادة الله وحده، ونبذ الشرك واجتناب الطاغوت، والتحلّي بالفضائل ومكارم الأخلاق. وكان القرآن الكريم في تلك المرحلة يُزكّي هذا الاتجاه، فلم يشغل المسلمون في هذه الأونة بالمسائل الجزئية، ولا بالأحكام الفرعية، بل يبنيان الإنسان الذي تحدّثت سورة العصر:

{الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}.

لم يُشرع للمسلمين أن يحملوا قُؤوسهم على الأصنام وهم يرونها كل يوم حول الكعبة، ولم يُؤدّن لهم أن يُشهرُوا سُيوفهم دفاعاً عن أنفسهم، ومقاومة العدو (وعدوهم، الذي يسومهم العذاب) بل كان يقول لهم ما ذكره القرآن أن {كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة} وإن كانوا يأتون إلى رسولهم - صلى الله عليه وسلم - ما بين مشجوج ومجروح.

ارتباط الأولويات بفقه الموازنات

إنّ فقه الأولويات مرتبط بفقه الموازنات، وفي بعض المجالات يتداخلان أو يتلازمان، فقد تنتهي الموازنة إلى أولوية مُعيّنة، فهنا تدخل في فقه الأولويات.

وجوب مراعاة النَّسَبِ بين التكاليف الشرعية:

إنَّ الإخلال بالنَّسَبِ التي وضعها الإسلام للتكاليف الشرعية يُحدِث ضرراً بليغاً بالدين والحياة. إنَّ العقيدة في الإسلام مقدّمةٌ على العمل، لأنّها الأساس، والأعمال هي البناء ولا بقاء بغير أساس، وبعد العقيدة تأتي الأعمال وهي متفاوتة تفاوتاً بعيداً، وقد جاء في الحديث الصحيح:

(الإيمان بضع و سبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق)، والقرآن يبيّن لنا أنّ الأعمال تتفاضل عند الله، وليست في درجة واحدة، يقول تعالى: {أجعلتم سقاية الحاجّ وإمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون} (سورة التوبة: 19، 20).

ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج، بل ذكر فقهاء الحنابلة وغيرهم أنّ الجهاد أفضل ما يتطوع به من أعمال البدن.

وفي فضل الجهاد جاءت أحاديث كثيرة منها ما رواه أبو هريرة، قال: "مرّ رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بشعب فيه عُيَيْنَةٌ من ماء عذبة فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، فذكر ذلك لرسول الله فقال: لا تفعل، فإنّ مقام أحدكم في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً".

وفي فضل الرباط جاء حديث سلمان مرفوعاً: "رباط يومٍ وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وآمن من الفتان" رواه مسلم.

وهذا ما جعل إماماً مثل عبد الله بن مبارك وهو في أرض الرّباط يكتب إلى صديقه الفضيل بن عياض الزاهد العابد، وهو ينتقل بين الحرمين مكة والمدينة متعبداً:

يا عابِدَ الحَرَمَيْنِ لو أَبْصَرْتَنَا لعلمت أنّك بالعبادة تلعبُ
من كان يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ فنُحورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ

*ومن المقرر فقهاً: أنّ النافلة لا يجوز تقديمها على الفريضة، وأنّ فرض العين مُقدّمٌ على فرض الكفاية، وأنّ فرض الكفاية الذي لم يَقم به أحد أو عدد يكفي مُقدّمٌ على فرض الكفاية الذي قام به من يكفي وَيَسُدُّ الثغرة، وأنّ فرض العين المُتعلِّقَ بالجماعة والأمة مُقدّمٌ على فرض العين المتعلق بحقوق الأفراد، وأنّ الواجب المُحدّدَ الوقتِ والذي جاء وقته بالفعل مُقدّمٌ على الواجب المُوسّع في وقته. ومن المقرر كذلك أنّ المصالح المقرّرة شرعاً متفاوتة فيما بينها، فالمصالح الضرورية مقدمة على الحاجة والتحسينية، والمصالح الحاجة مُقدّمةٌ على التحسينية، والمصالح المُتعلقة بمصالح الأمة وحاجاتها أولى بالرعاية من المصالح المُتعلقة بالأفراد عند التعارض، وهنا نجد فِقة الموازنات يلتقي بفقه الأولويات.

غياب فقه الأولويات عند كثير من المسلمين

إنّ آفة كثيرٍ من فصائل الصحوة الإسلاميّة هي غيابُ فقه الأولويات عنها، فكثيراً ما تهتم بالفروع قبل الأصول، وبالجزئيات قبل الكليات، وبالمختلف فيه قبل المتفق عليه، وتَسأل عن دم البعوض، ودم الحسين مهراق، وتثير معركة من أجل نافلة، وقد ضيع الناس الفرائض، أو من أجل شكل أو هيئة، دون اعتبار للمضمون.

وهذا هو الحال عند عموم المسلمين، أرى الملايين يعتمرون تطوّعاً كل عام في رمضان وغيره، ومنهم من يحجّ للمرة العاشرة أو العشرين، ولو جمع ما ينفقه هؤلاء في هذه النوافل لبلغ آلاف الملايين، ونحن نلهث من عدة سنوات لتجميع ألف مليون دولار

للهيئة الخيرية الإسلامية، فلم نحصل على عشر المبلغ ولا نصف عُشره ، ولا ثلثه، ولو قلت لهؤلاء المتطوعين بالعمرة أو الحج: ادفعوا ما تنفقونه في رحلتكم التطوعية لمقاومة التنصير أو الشيوعية في آسيا وإفريقيا أو المجاعات هنا وهناك، ما استجابوا لك، وهذه آفة قديمة شكا منها أطباء القلوب. وإنّ من فقه الأولويات: أن نعرف أي القضايا أولى بالاهتمام فتعطى من الجهد والوقت أكثر مما يُعطى غيرها.

ومن فقه الأولويات أن يُعرّف:

أيُّ الأعداء أولى بتوجيه قِوانا الضاربة إليه، وتركيز الهجوم عليه، وأيِّ المعارك أولى بالبدء، فالناس في نظر الإسلام أنواع: هناك المسلمون، وهناك الكفار، وهناك المنافقون. والمسلمون منهم الجَهلة، ومنهم الخَونة، والكفار منهم المسالمون، ومنهم المحاربون، ومنهم الذين كفروا فقط، ومنهم الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله، والمنافقون منهم ذوو النفاق الأصغر، ومنهم أهل النفاق الأكبر، فبمن نبدأ؟ وأيُّ الجهات أولى بالعمل؟ وأيُّ الأمور أولى بالرعاية؟ ومن فقه الأولويات: أن نعرف واجبَ الوقت، فنقدمه على غيره ونعطيه حقه، ولا نُؤخّره فنُفوّتَ فرصةً قد لا تُعوّض إلا بعد زمن طويل، وقد لا تعوّض يوماً. والشاعر الراجز يقول:

وانْتَهَزِ الْفُرْصَةَ إِنَّ الْفُرْصَةَ تَصِيرُ إِنْ لَمْ تَنْتَهِزْهَا

عَصَّة

ومن حكمتنا المأثورة: لا تؤخر عمل اليوم إلى غد. وقد قيل لعمر بن عبد العزيز يوماً: أَخِرْ عَمَلَ هَذَا الْيَوْمِ، وَقِمْ بِهِ غَدًا، فقال: لَقَدْ أَغْيَانِي عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَ عَلَيَّ عَمَلُ يَوْمَيْنِ؟

ومن حكم عطاء: حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق لا يُمكن قضاؤها، إذ ما من وقتٍ يَرُدُّ إلا ولله فيه حقٌ جديد، وعملٌ أكيد.

الإمام الغزاليّ وفقه الأولويات

وقد أنكر الإمام الغزاليّ في (الإحياء) على بعض فِرَقِ المغرورين بالعبادة دون مراعاةٍ لمراتب الأعمال، فقال: (وفِرْقَةٌ أخرى حرّصت على النوافل ولم يَعْظِمِ اعتدادها بالفرائض، نرى أحدهم يفرح بصلاة الضحى، وبصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة، ولا يشتدّ حرصه على المبادرة بها في أوّل الوقت، وينسى قوله - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويّه عن ربه: (ما تقرب المتقربون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم)، وترك الترتيب بين الخيرات من جُملة الشرور، بل قد يتعيّن في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيّقُ وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغروراً.

ونظائر ذلك أكثر من أن تُحصى، فإنّ المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنّما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهمّ من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد، إذ سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقيل له: من أبرُّ يا رسول الله؟ قال: (أمّك) قال: ثم من؟ قال: (أمّك) قال: ثم من؟ قال: (أمّك) قال: ثم من؟ قال: (أباك)، قال: ثم من؟ قال: (أدناك فأدناك) فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى والأورع. وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين

والحج، فربما يحج وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض الأهم على فرض هو دونه. وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة، فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد (حينئذٍ) معصية، وإن كان هو طاعةً في نفسه. وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة، وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة. وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور.

تحقيق الإمام ابن القيم في أيّ العبادات أفضل

ويذكرُ المحقق ابن القيم الأقوال في أيّ العبادات أفضل: هل الأفضل منها: الأشقُّ؟ أو الأفضل: المتعدّيةُ النَّفع؟ ثم رجَّحَ أنَّه لا يوجد فضل بإطلاق، وإنَّما لكل وقت عبادة تكون هي الأفضل بالنسبة له، فعند المجاعات يكون إطعام الطعام أفضل ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله، وعندما يغزو الكفار بلدًا مسلمًا يكون الجهاد أفضل الأعمال، وإمداد المجاهدين بالسلاح والمال من أعظم القُرَبات، وعندما يموت العلماء، ولا يوجد من يخلفهم، يكون طلب العلم والتَّبَحُّرُ فيه من أجلِّ ما يُؤجر عليه المسلم، ويُحمد به عند الله وعند المؤمنين، وهكذا يكون التفاضل بين الأعمال.

ما ينبغي التركيز والبدء به

ولكنّ الذي ينبغي أن تُركِّز عليه الحركة هنا عدة أمور لها أهميتها الخاصة في المرحلة القادمة في ضوء (فقه الأولويات) المشار إليه. التركيز على مفاهيم معينة يجب تجليتها وتعميمها وتعميقها في المجال الفكري، وهو ما أسميناه (الفقه الجديد).

التركيز على شرائح اجتماعية معينة يجب أن تمتد إليها الحركة، وتشملها الصحة وذلك في المجال الدعوي.

التركيز على مستوى كفيّ معيّن من إعداد القيادات المرجوة للمستقبل، ولاسيّما الإعداد الإيماني والفكري، وذلك في المجال التربوي.

التركيز على تطوير الأفكار والممارسات فيما يتصل بالعلاقات السياسية المحلية والعالمية خروجاً من التقوق الداخلي، والحصار الخارجي، وتحقيقاً لعالمية الحركة ومرونتها، وذلك في المجال السياسي.

من فقه الأولويات

- 1- أولوية الكيف على الكم
- 2- أولوية العلم على العمل (توّب الإمام البخاريُّ باباً في صحيحه سمّاه : بابُ العلم قبل القول والعمل)
- 3- أولوية الفهم والفقه على الحفظ (زُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ)
- 4- أولوية المقاصد على الظواهر (مقاصد الشريعة من حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والمال)
- 5- أولوية الاجتهاد على التقليد) خصوصاً في مرحلة النوازل والمستجدات لا يمكن أن يفتى بها بفقه الاستقرار)
- 6- أولوية التخفيف والتيسير على التشديد والتعسير
- 7- أولوية ما لا يتسع له الوقت على ما يتسع له الوقت (الحجّ يتسع له الوقت بينما ردُّ الصّائلي لا يتسع له الوقت)
- 8- أولوية ما يعمُّ ويشمل نفعه على ما يخصُّ نفعه (العبادات الاجتماعية تُقدّم على العبادات الشخصية)
- 9- أولوية الفرائض على النوافل وألوية فروض الأعيان على فروض الكفایات (لا يقبلُ اللهُ تعالى نافلةً حتى تؤدّى الفريضة)
- 10- أولوية حقوق العباد على حق الله المجرد، وألوية حق الجماعة على حق الفرد (حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحّة)

11- أولويّة جهاد العدوّ القريب الصّائل على غيره قال تعالى: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) التوبة

سابعاً: فقه المآلات:

ويُؤصّلُ الإمامُ الشاطبيّ لهذا الفقه فيقول:
النظر في مآلات الأفعال مقصودٌ شرعاً؛ وذلك أنّ المجتهد لا يحكم على فعلٍ من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، فقد يكون مشروعاً لمصلحةٍ فيه تُستجلبُ، أو لمفسدةٍ فيه تُدرأ، ولكن له مآلٌ على خلاف ما قُصدَ فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنبشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أُطلق القول في الأول بالمشروعيّة فربما أدّى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعاً من إطلاق القول بالمشروعية، وكذلك إذا أُطلق القول في الثاني بعدم

المشروعية فربما أدّى استدفاع المفسدة بمفسدةٍ تساوي أو تزيد، فلا يَصْلُحُ إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد إلا أنّه عذب المذاق محمود العاقبة، جارٍ على مقاصد الشريعة .

تأصيل فقه المآلات من القرآن الكريم والسنة النبوية:
أولاً: من القرآن الكريم:

يقول الله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

يقول ابن العربي: اتفق العلماء على أن معنى الآية: لا تسبوا آلهة الكفار فيسبوا الله سبحانه وتعالى، وهذا تهية عن سب آلهة المشركين، ولو كان ذلك السب على سبيل الغيظ منها والإهانة لها والحمية لله عز وجل، ولأنه في الوقت نفسه يؤدي إلى سب الكفار لله عز وجل، ولذلك ورد النهي عنه.

وكذلك آيات سورة الكهف وقصة سيدنا موسى مع العبد الصالح، حيث إنّ أفعال العبد الصالح كلها عُيِّلَتْ بغايات مآلية: خرق السفينة {قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا أَمْرًا} فَعَلَّلَ: {أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسِيَكَينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}، وكذلك في مسألة قتل الغلام وعملية بناء الجدار.

يقول الله تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}. قال العلماء: هذه الآية أصل من أصول إثبات سد الذرائع - التي قال بها مالك وتابعه أحمد في بعض رواياته - وهو كلّ عملٍ ظاهره الجواز يُتَوَصَّلُ به إلى محذور، كما فعل اليهود حين حُرِّم عليهم صيد السبت، فسكروا الأنهار وربطوا الحيتان فيه إلى يوم الأحد، والشواهد من القرآن الكريم في هذا الموضوع كثيرة لا يتسع المجال لاستيفائها.

ثانيا: من السنة النبوية:

وفي السنة النبوية تطبيقات هادية في هذا الباب:
فقد أمتنع النبي _ صلى الله عليه وسلم _ عن قتل المنافقين مع علمه بهم وعلمه باستحقاقهم القتل، عَنْ جَايِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: جِئْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ _ صلى الله عليه وسلم _ عام الْجِعْرَانَةِ وَهُوَ يَفْسِمُ فِضَّةً فِي تَوْبِ بِلَالٍ لِلنَّاسِ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْدِلْ . فَقَالَ: وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟! لَقَدْ خِبْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ! فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَقْتُلْ هَذَا الْمُتَافِقَ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَيُّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي. إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ أَوْ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ).

وتخلي النبي _ صلى الله عليه وسلم _ عن إعادة بناء المسجد الحرام على قواعد إبراهيم حتى لا يثير بلبلة بين العرب، وكثير منهم حديثو عهد بالإسلام، وقال مخاطبًا عائشة رضي الله عنها: "أَلَمْ تَرِي أَنَّ قَوْمَكَ حِينَ بَنَوْا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: لَوْلَا حَدَّثَانُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَفَعَلْتُ"
وفي رواية أخرى "لَوْلَا حَدَاثُهُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَنَقَضْتُ الْبَيْتَ، ثُمَّ لَبَتَيْتُهُ عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ".

والشاهد أنّ النبي _ صلى الله عليه وسلم _ ترك ذلك الفعل مع ما فيه من المصلحة الظاهرة خشية أن يؤول الأمر إلى ما فيه مفسدة، ودرء المفسد مقدّم على جلب المصالح كما هو مقرر عند أهل العلم.

الأسس الثلاثة لفقه المآلات:

- 1- استقراء الجزئيات لصياغة الكليات
- 2- فقه سنن القرآن في الأنفس والمجتمعات والحضارات قياماً وسقوطاً.

3- الاعتماد على آليات النظر الاستراتيجية المعتمد في الدراسات الإستراتيجية والمستقبلية المعاصرة. أما الأساس الأول: فهو يعتمد على قراءة متأبئة وعميقة للأحداث التي شكلت المواقف السياسية والأنماط الاجتماعية والثقافية للمجتمع الذي نعيش فيه. وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية أن المجتمع يتكون من أنماط ثقافية وعرفية إلزامية وأخرى غير إلزامية، بل إن الأعراف الإلزامية هي التي تُحدث التغيير الاجتماعي وليس العكس، وأنها قوة اجتماعية من الصعب جدًا تغييرها بعد استحكامها في المجتمع.

ولذلك فالداعية في حاجة إلى استقرار جزئيات الواقع وتحديد العوامل التي تؤثر في مساره كما يحدد عالم الاجتماع الأنماط السلوكية للمجتمع. وإذا كان علم الاجتماع قد حدد عناصر الثقافة في ثلاثة عناصر وهي: اللغة والعادات والقيم، فإنّ الداعية المسلم في حاجة إلى الارتقاء إلى المستوى الحضاري في تحديد الإطار العام لعناصر الثقافة، وهو الإطار الحضاري الإسلامي الذي يجعل من الدين الوحدة الأساسية لتحليل الأحداث الجزئية والكلية، أو على حد تعبير مالك بن نبي "استخدام الفكرة الدينية لتفعيل عناصر الحضارة، وهي الإنسان والتراب والزمن".

والأساس الثاني من أسس فقه المآلات هو فقه السنن الكونية والحضارية التي تضمنها القرآن وهو يفسر لنا قيام وسقوط الأمم والحضارات، فلقد زخّر القرآن الكريم بجملة من سنن قيام وسقوط الحضارات كثيرًا ما نغفل عنها.

وأما الأساس الثالث: فهو دعوة للاستفادة من آليات الدراسات الإستراتيجية والمستقبلية التي تستخدمها اليوم الدول والمراكز الخاصة بذلك، فإن معظم الدوائر السياسية والاقتصادية تعتمد على مؤشرات تبني عليها خططها التنموية، وترسم على ضوءها سياستها المالية التي تساعد على تحقيق التنمية المستدامة وضمان الاستقرار العام.

* أهمّ تطبيقات فقه المآلات:

من أمثلة ذلك ما ذكره العلماء في حالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث ذكروا أنّ المرء يأمر وينهى في حالة عدم نتوج مفسدة أكبر بسبب هذا الأمر وذلك النهي ، وحين يجد الأمر والنّاهي أنّ فعله سيؤول إلى مفسدة أعظم، فعليه أن يَكُفَّ عن أمره أو نهيه ، عندما بال الأعرابي في المسجد، وقام الصحابة لزره ومنعه، قال عليه الصلاة والسلام: (لا تُزْرِمُوهُ ، دَعُوهُ).

فلولا مراعاة المآلات والنتائج لوجب قتل المنافقين وإعادة بناء البيت على قواعد إبراهيم، ومنع الأعرابي من إتمام عمله المنكر الشنيع، ولكن الأول كان سيفضي إلى نفور الناس من الإسلام خشية أن يُقتلوا بتهمة النفاق، والثاني يؤدي إلى اعتقاد العرب أنّ النبي _صلى الله عليه وسلم_ يهدم المقدسات ويغيّر معالمها، والثالث ليس فيه إلا أن يتنجس البائل جسمه وثوبه وربما نجس مواضع أخرى من المسجد، وربما كان هناك ضرر صحي عليه.

وفي صحيح مسلم عن سلمان بن ربيعة قال: قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: (قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ _صلى الله عليه وسلم_ قَسَمًا فقلت: والله يا رَسُولَ اللَّهِ لَعَيْرٌ هَؤُلَاءِ كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُمْ، قَالَ: أَنَّهُمْ خَيْرُونِي أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يَبْخُلُونِي فَلَسْتُ بِبَاخِلٍ).

يقول _صلى الله عليه وسلم_ أنهم يسألوني مسألة لا تصلح؛ فإن أعطيتهم وإلا قالوا: هو بخيل ، فقد خيروني بين أمرين مكرهين لا يتركوني من أحدهما: الفاحشة والتبخيل، والتبخيل أشد، فأدفع الأشد بإعطائهم.

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أنّه سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ _صلى الله عليه وسلم_ يَقُولُ عام الفَتْحِ وهو بِمَكَّةَ: "إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفْنُ وَيُذَهَّنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصِيحُ بِهَا النَّاسُ، فَقَالَ: لَا، هُوَ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ _صلى الله عليه وسلم_ عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهَا، ثُمَّ بَاعُوهَا، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ".

هذه النصوص وغيرها تدل على أصالة فقه المآلات ومكانته في شريعتنا الإسلاميّة، وعلاقته الوطيدة ببعض صور الاستدلال، حتى إنّ الشاطبيّ رحمه الله يؤكد أنّ سدّ الذرائع ومراعاة الخلاف يتفرعان من مبدأ (المآلات).

ثامناً: فقه الموازنات

أقسام فقه الموازنات:

يقسم فقه الموازنات إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

1- الموازنة بين المصالح:

المصلحة في الاصطلاح كما عرّفها الغزالي هي: طلب منقعةٍ أو دَفْعُ مَفْسَدَةٍ، والمحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهي: (الدين، النفس، النسل، العقل، والمال)، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يُفوّتُ هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة.

ومن الأدلّة التي استنبط منها العلماء قاعدة الموازنة بين المصالح: قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [البقرة: 219]. فقدم القرآن الكريم مصلحة الإنفاق على العيال في حال عدم وفرة المال، على مصلحة الإنفاق على الفقير وهو أمر عقلي وفطري يعضده الرأي الشرعي والرأي الاجتماعيّ، وهي العادة الشفوية.

2- الموازنة بين المصالح والمفاسد:

ومن الآيات الدالّة على الموازنة بين المصالح والمفاسد قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة: 219]. ففي قوله تعالى: {وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} دلالة واضحة على الموازنة بين المصالح والمفاسد.

وفي الحياة اليومية تغلب معرفة هذا النوع لكونه مقرّراً في طبائع الأشياء حيث يغلب معرفة المفسدة من المصلحة لكون التقارب بينهما والاشتباه بعيداً.

3- الموازنة بين المفاسد:

ذكر القرآن الكريم قصة الخضر عليه السلام حين خَرَقَ السفينة وهي سالحة، فقد أحدث فيها مفسدة، ليدفع بها مفسدة أعظم، ألا وهي غَصْبُ السفينة من قبل الملك، فلولا هذا الخرق أو المفسدة لأخذها الملك، وضاع أهلها الذين يقتاتون بما رزقهم الله من دخلها، قال تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: 79]، وفي هذه القصة دليل على جواز قصد إحداث مفسدة ما، لدفع أخرى راجحة، ولا يُعدّ ذلك من باب الخيانة للأمانة أو للأمة. فكيف تكون الحال إذا قرَضَ الواقع نفسه بضغط من الظروف كالاستعانة بالجيوش غير المسلمة لدفع عدوّ صائلٍ، أو توقيع معاهدة سلام مع الأعداء والتنازل فيها عن بعض الحقوق، أو بالضغط من قبل الأعداء لتسليمهم بعض الرعايا المسلمين في ظروف خاصّة حرجة. لا شك أنّ عمل مثل هذه الأمور في مثل هذه الأحوال القاهرة أولى بالجواز، لما سيترتب على عدم الاستجابة لهذه الضغوط من مفساد كبيرة تهدد أحياناً وجود الدولة.

إنّ فقه الموازنة عمل دقيق، تكتنفه مخاطر عدة، لذا فهو يحتاج إلى فقيه فطن وخبير متوازن الشخصية، متمكّن من علوم الشرع، مستبصر بواقع الحال، مدركٍ لمآلات الأفعال وآثارها. يقول ابن تيمية: "باب التعارض باب واسع جداً، خاصّة في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإنّ هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة؛ فإنّه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجّحون هذا الجانب وإن تضمّن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون للسيئات فيرجّحون الجانب الآخر وإن تركّ حسنات عظيمة، والمتوسّطون الذين ينظرون الأمرين، قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة، أو يتبيّن لهم، فلا يجدون من

يعينهم للعمل بالحسنات وترك السيئات لكون الأهواء قارنت الآراء". وقبل أن نذكر وجوه الترجيح وموجّهات الموازنة فلا بدّ أن ننبه هنا إلى أنّ المعيار الصحيح لإدراك المصالح والفساد هو الكتاب والسنة، وهذا أمر تدركه الفطر السليمة، والعقول الصحيحة، ولذا فالمعتبر في معرفة المصلحة هو النصّ الشرعيّ، فإنّ الشرع لا يُهمل مصالح العباد.

ومن المصالح والمفاسد ما يكون الترجيح بينهما بالتقريب، لأنّها «لا وقوف على مقاديرها وتحديدها»، وبذلك فهي من موارد الاجتهاد التي يختلف فيها النظر بين المجتهدين، فمن أصاب قلبه أجران ومن أخطأ قلبه أجر واحد.

إلا أنّ المطلوب من الناظر عند الموازنة أن يستوفيّ النظر، غير غافلٍ عن أيّ وصفٍ مؤثر. يقول ابن تيمية: " الورع المشروع هو أداء الواجب وترك المحرّم، وليس هو ترك المحرم فقط، ومن هنا يغلط كثير من الناس فينظرون ما في الفعل من كراهة توجب تركه ولا ينظرون ما فيه من جهة أمر توجب فعله ".
وسبب ذلك أنّ من الناس من ينظرُ للفساد الموجود في الفعل والذي يحمله على تركه، ولا ينظر إلى ما يعارض من المصلحة الراجعة.

والمطلوب من الناظر ألا يغفلَ عن أيّ وصفٍ للحال أو المآل، ويتحرّى الصواب، مع الاستشارة، فإن الصواب قد يظهر لقومٍ ويغيب عن آخرين، وينبذ الهوى، فإنّ في اتباعه مضادةً للصواب، ويستعمل الإخلاص وحسنَ القصد وسلامة القلب، فإن الموازنة مذلة قوم، ومضلة فهم، وكثيراً ما يقع فيه الاختلاط.

حاجتنا إلى فقه الشرع وفقه الواقع:

ونحن في هذا المقام نحتاج إلى مُستويين من الفقه: أوّلهما: فقه شرعيّ يقوم على فهم عميقٍ لنصوص الشرع ومقاصده، حتى يسلم بصحة (مبدأ الموازنات) المذكور، ويعرف

الأدلة عليه، وهي واضحة لمن استقرأ الأحكام والنصوص وغاص في أسرار الشريعة.
فما جاء الشرع إلا لتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد، برتبها المعروفة: الضرورية والحاجية والتحسينية.

والآخر: فقه واقعي، مبني على دراسة الواقع المعاييش دراسةً دقيقةً مُستوعبةً لكلّ جوانب الموضوع، معتمدةً على أصلح المعلومات وأدقّ البيانات والإحصاءات، مع التحذير هنا من تضليل الأرقام غير الحقيقية المستندة إلى المنشورات الدعائية، والمعلومات الناقصة والبيانات غير المستوفية، والاستبيانات والأسئلة الموجهة لخدمة هدف جزئيّ معيّن لا لخدمة الحقيقة الكلية.

ضرورة تكامل الفقهاء للوصول إلى نتائج سليمة.
ولا بدّ أن يتكامل فقه الشرعة، وفقه الواقع، حتى يمكن الوصول إلى الموازنة العلمية السليمة، البعيدة عن الغلو والتفريط.
والجانب الشرعي هنا واضح من الناحية المبدئية، فقد تحدّث عنه كتب أصول الفقه من المستصفي إلى الموافقات، وكتب القواعد والأشباه والفروق.

إنّ المصالح إذا تعارضت فوّتت المصلحة الدنيا في سبيل المصلحة العليا، وضجّي بالمصلحة الخاصة من أجل المصلحة العامة، ويُعوّض صاحب المصلحة الخاصة عمّا ضاع من مصالحه أو ما نزل به من ضررٍ، وألغيت المصلحة الطارئة لتحصيل المصلحة الدائمة أو الطويلة المدى، وأهملت المصلحة الشكلية لتحقيق المصلحة الجوهرية، وغلبت المصلحة المتيقّنة على المظنونة والموهومة.

وفي صلح الحديبية رأينا النبي-صلى الله عليه وسلم- يُغلب المصالح الحقيقية والأساسية والمستقبلية على بعض الاعتبارات التي يتمسك بها بعض الناس، فقيل من الشروط ما قد يُظنّ لأوّل

وَهَلِيَّةٌ أَنْ فِيهِ إِجْحَافًا بِالْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ، أَوْ رَضَىَّ بِالذُّونِ، وَرَضِيَ أَنْ تُحْدَفَ الْبِسْمَلَةُ الْمَعْهُودَةُ، وَيُكْتَبَ بِدَلِّهَا (بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ) وَأَنْ يُمْحَى وَصْفُ الرِّسَالَةِ مِنْ عَقْدِ الصَّلَاحِ، وَيُكْتَفَى بِاسْمِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ. وَالْأَمْثَلَةُ كَثِيرَةٌ، وَالْمَجَالُ ذُو سَبْعَةٍ.

وإذا تعارضت المفاصد والمضارّ ولم يكن بدُّ من بعضها، فمن المُقَرَّرِ أَنْ يَرْتَكِبَ أَخْفُ الْمَفْسَدَتَيْنِ، وَأَهْوَنُ الضَّرَرَيْنِ. هَكَذَا قَرَّرَ الْفُقَهَاءُ: أَنَّ الضَّرَرَ يُزَالُ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ، وَأَنَّ الضَّرَرَ لَا يُزَالُ بِضَرِّ مِثْلِهِ أَوْ أَكْبَرَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ يُتَحَمَّلُ الضَّرْرُ الْأَدْنَى لِدَفْعِ الضَّرْرِ الْأَعْلَى، وَيُتَحَمَّلُ الضَّرْرُ الْخَاصُّ لِدَفْعِ الضَّرْرِ الْعَامِ. وَلِهَذَا أَمْثَلَةٌ وَتَطْبِيقَاتٌ كَثِيرَةٌ ذُكِرَتْ فِي كُتُبِ (الْقَوَاعِدِ الْفَقْهِيَّةِ) أَوْ (الْأَشْبَاهِ وَالنِّظَائِرِ). وَإِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ، أَوْ الْمَنَافِعُ وَالْمَضَارُّ، فَالْمُقَرَّرُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَى حَجْمِ كُلٍِّ مِنَ الْمَصْلُحَةِ وَالْمَفْسَدَةِ، وَأَثَرِهَا وَمَدَاهِ، فَتُغْتَفَرُ الْمَفْسَدَةُ الْيَسِيرَةُ لِجَلْبِ الْمَصْلُحَةِ الْكَبِيرَةِ، وَتُغْتَفَرُ الْمَفْسَدَةُ الْمُؤَقَّتَةُ لِجَلْبِ الْمَصْلُحَةِ الدَّائِمَةِ وَالطَّوِيلَةِ الْمَدَى، وَتُقْبَلُ الْمَفْسَدَةُ وَإِنْ كَبُرَتْ إِذَا كَانَتْ إِزَالَتِهَا تُوَدِّي إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا. وَفِي الْحَالَاتِ الْمَعْتَادَةِ: يُقَدِّمُ دَرءُ الْمَفْسَدَةِ عَلَى جَلْبِ الْمَصْلُحَةِ. وَلَيْسَ الْمُهِمُّ أَنْ نَسْلَمَ بِهَذَا الْفَقْهَ نَظْرِيًّا، بَلِ الْمَهْمُ كُلُّ الْمُهِمِّ أَنْ نُمَارِسَهُ عَمَلِيًّا. فَكَثِيرٌ مِنْ مُسَبِّبَاتِ الْخِلَافِ بَيْنَ الْفِصَالِ الْعَامِلَةِ لِلْإِسْلَامِ، يَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الْمَوَازِنَاتِ:

- هل يُقْبَلُ التَّحَالُفُ مَعَ قُوَى غَيْرِ إِسْلَامِيَّةٍ؟
- هل تُقْبَلُ مُصَالِحَةٌ أَوْ مَهَادَنَةٌ مَعَ حُكُومَاتٍ غَيْرِ مُلتَزِمَةٍ بِالْإِسْلَامِ؟
- هل تَمَكِّنُ الْمَشَارَكَةَ فِي حُكْمِ لَيْسَ إِسْلَامِيًّا خَالِصًا؟ وَفِي ظِلِّ دَسْتُورٍ فِيهِ ثَغْرَاتٌ أَوْ مَوَادٍ لَا نَرْضَى عَنْهَا تَمَامَ الرِّضَى؟
- هل نَدْخُلُ فِي جَبْهَةٍ مَعَارِضَةٍ مَكُونَةٌ مِنْ بَعْضِ الْأَحْزَابِ لِإِسْقَاطِ نِظَامِ طَاغُوتِي فَاجِرٍ؟
- هل نَقِيمُ مَوْسَسَاتٍ اِقْتِصَادِيَّةٍ إِسْلَامِيَّةٍ مَعَ سَيْطَرَةِ الْاِقْتِصَادِ الْوَضْعِيِّ الرَّبُوبِيِّ؟
- هل نَجِيزُ لِلْعُنَاوِرِ الْمُسْلِمَةِ الْعَمَلِ فِي الْبَنُوكِ وَالْمَوْسَسَاتِ الرَّبُوبِيَّةِ أَمْ نَفْرَغُهَا مِنْ كُلِّ عُنْصُرٍ مُتَدِينٍ مُلتَزِمٍ؟

*صعوبة الممارسة والتطبيق في الحياة العملية:
إن تقرير المبدأ سهل، ولكن ممارسته صعبة، لأنّ فقه الموازنات يصعب على العوام وأمثالهم من القادرين على التشويش لأدنى سبب. لقد لقي العلامة المودودي وجماعته عَنَتاً كثيراً حينما رأى - في ضوء فقه الموازنات - أن لانتخاب فاطمة جُنَاح أقلُّ ضرراً من انتخاب أيوب خان، فشَتَّت الغارة عليهم بحديث "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة". وهل يفلح قوم ولوا أمرهم طاغية متجبراً؟؟ لن يفلحوا، والفقه هنا ينظر: أي الشرّين أهون، أو أيُّ المفسدتين أخفّ، فيرتكب الأدنى في سبيل الأعلى.

والإخوة في سوريا عانوا مثل ذلك، حين قرروا التحالف مع بعض القوى غير الإسلاميّة لمقاومة النظام الذي يريد أن يستأصل شأفتهم، وقد تحالف الرسول مع خُزاعة وهم على الشرك، واستعان ببعض المشركين على بعض.

وأنا لا أنتصر هنا لموقف هؤلاء ولا أولئك، ولكن أنتصر للمبدأ، مبدأ فقه الموازنات الذي على أساسه يقوم بنيان (السياسة الشرعية). وفي مواقف الرسول الكريم وأصحابه، وأدلة الشرع الفسيح، ما يؤيّد هذا كله، من جواز الاشتراك في حكم غير إسلامي، وجواز التحالف مع قوى غير إسلاميّة.

أدلة من القرآن على فقه الموازنات
والمتدبر لآيات القرآن الكريم مكّيّة ومدنيّة، يجد فيه أدلة كثيرة على فقه الموازنات والترجيح.

* نجد في الموازنة بين المصالح قوله تعالى على لسان هارون لأخيه موسى عليهما السلام: {يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إني خشيتُ أن تقولَ فرَّقْتَ بين بني إسرائيل ولم ترُقْبْ قولي} (سورة طه: 94).

* وفي الموازنة بين المفساد والإضرار نجد قوله تعالى على لسان الخضر في تعليل خرق السفينة {أمّا السفينة فكانت لمساكين

يعملون في البحر فأردت أن أعيِّبها، وكان وراءهم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً} (سورة الكهف: 79)

فلأن تبقى السفينة لأصحابها وبها خرقٌ أهون من أن تضيع كلها، فَحَفِظُ البعض أولى من تضييع الكل.

*ومِن أبلغ ما جاء في الموازنات قوله تعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه، قل قتالٌ فيه كبير، وصدُّ عن سبيل الله، وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل} (سورة البقرة: 217)

فقد أقرَّ بأن القتال في الشهر الحرام كبير، ولكن لمقاومة ما هو أكبر منه.

*وفي الموازنة بين المصالح المعنوية والمادية، نقرأ قوله تعالى عتابًا للمسلمين عقب غزوة بدر: {ما كان لنبِيِّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرضَ الدنيا والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم} (الأنفال: 67)

وفي الموازنة بين المصالح والمفاسد نقرأ قوله تعالى: {يسألونك عن الخمر يسألونك عن الخمر والميسر، قل : فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما} (البقرة : 219).

*وفي الموازنة بين الجماعات والقوى غير المسلمة بعضها وبعض، نقرأ أوائل سورة الرّوم وفيها انتصار للروم على الفرس، وكلا الفريقين غير مسلم، ولأنّ الرّوم أهل كتاب فهم أقرب إلى المسلمين من المجوس عبّاد النار.

كلام شيخ الإسلام ابن تيمية:

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام قويٌّ في جواز تولي بعض الولايات في دولة ظالمة، إذا كان المتولّي سيعمل على بعض الظلم أو تقليل حجم الشر والفساد

وله في موطن آخر فصل جامع في تعارض الحسنات أو السيئات، أو هما جميعاً، إذا اجتمعا ولم يُمكن التفريق بينهما، بل الممكن إمّا فعلهما جميعاً وإمّا تركهما جميعاً

إذا غاب فقه الموازنات عن الساحة
إذا غاب عنا فقه الموازنات سَدَدْنَا على أنفسنا كثيراً من أبواب
السعة والرحمة، واتخذنا فلسفة الرفض أساساً لكلّ تعامل،
والانغلاق على الذات تكأة للفرار من مواجهة المشكلات، والاقترام
على الخصم في عقر داره. سيكون أسهل شيء علينا أن نقول: «لا»،
أو: حرام في كل أمر يحتاج إلى إعمال فكر وإجهاد.
أما في ضوء فقه الموازنات فسنجد هناك سبيلاً للمقارنة بين
وضع ووضع، والمقابلة بين حال وحال، والموازنة بين المكاسب
والخسائر، على المدى القصير، وعلى المدى الطويل، وعلى
المستوى الفردي، وعلى المستوى الجماعي، ونختار بعد ذلك ما
نراه أدنى لجلب المصلحة، ودرء المفسدة.
ولا يزال بعض الإخوة يُنكرونها على من يكتب في الصحف اليومية
التي لا تلتزم بالخط الإسلامي الصريح، بل هناك من يرى مقاطعة
أجهزة الأئمة كلها: مقروءة و مسموعة ومرئية، لما يشوبها من
انحراف وفساد في الفكر والسلوك، ناسيّن ما لها من خطرٍ بالغٍ
على العقول والضمائر، وإنّ تَرْكَهَا لا يزيدُها إلا فساداً وخبالاً،
وسيمكّنُ العلمانيين والمُنحَلِّين من التغلغل فيها، والتخريب لها،
وسيحرمنا نحن من فُرصٍ لا نجد لها عوضاً.
ومن نظر إلى الأمر في ضوء فقه الموازنات وَجَدَ أنّ الدخول في
هذه الميادين الهامّة ليس مشروعاً فحسب بل هو مستحبٌّ، بل
واجب، لأنّه وسيلة إلى أداء أمانة الدعوة ومقاومة الباطل والمنكر
بقدر المستطاع، وما لا يَتِمُّ الواجب إلا به فهو واجب كما هو مقرر
ومعلوم.

النتيجة:

على الجماعات الاسلامية أن توازن في حال الضعف وغياب
التمكين بين الفاسد والأفسد وفي حال القوة والمُكَنة بين الصالح
والأصلح.

تاسعاً: فقه المرحلة

يجب على الأخ المسلم أن يفقه المرحلة التي يعمل بها ويراعي الظرفَ الزمني والمكاني والاجتماعي والمُنحني البياني لسير الدعوة، فإن كثير من الدعوات والمشاريع الحضارية أجهضت لضعف الفقه المرحلي عند أبنائها. وعليه فإتينا نراعي أن لا نبحث عن حلٍّ قبل أن نُشخِّصَ المشكلة، ولا ننتقل إلى الدعوة جهراً قبل أن تتخمر الدعوة سرّاً، ولا نفكر بالهجرة قبل عقد البيعة، ولا نعمل على أُنّا في العهد المدني و لا نزال في العهد المكي ولا نبني الدولة ونحن لم نبني الإنسان، ولا نستعجل الفتح قبل الجهاد، ولا نبدأ الجهاد قبل الإعداد للجهاد القتالي قبل الجهاد البياني، ولا نتحرك في جهاد الطلب ولم نخرج من ساحة جهاد الدفع ولا نسترخي بعد الوصول إلى الفتح حتى لا يكون المنحدر والسقوط.

- 1- في زمن الاستضعاف جاز للمسلم كتمان الدين تحقيقاً لمقاصده، وفي حال الإكراه الملجئ جاز للمسلم النطق بكلمة الكفر من غير أن يחדش ذلك في دينه.
- 2- وما جاز زمن الاستضعاف قد يكون محرّماً عند التمكين، وما أَيْحَ حال الإكراه والاضطرار فهو محظورٌ عند القدرة والاختيار.
- 3- إنّ الخلط بين ما جاز فعله زمن الاستضعاف وما يجب فعله زمن التمكين يؤدي إلى اضطراب في الرؤية والهدف وانحراف سلوك العاملين للدين.
- 4- فمن تمام العلم بالشرعية معرفة حكمة التفريق بين مرحلة الاستضعاف والإكراه ومرحلة القدرة والتمكين، وتغيّر الأحكام بين المرحلتين ضمن قواعد الاستطاعة.
- 5- وإنّ من المقرر في أصول الشريعة أنّ الأحكام مُعَلَّلَةٌ، وما انضبطت علته سرى حكمه لغيره إن اشتركا في العلة ولو لم تنص عليه الشريعة.

6- وإن من المتفق عليه بين الأصوليين أن بعض المسائل قد يتغيّر حُكْمُهَا بتغيّر الزمان أو المكان أو المآل أو الحال أو المصلحة أو المفسدة.

7- ولا يتعارض ذلك مع ثبات أحكام الشريعة وأصالتها لأنّ أدلّة تغيّر أحكام تلك المسائل هي الشريعة نفسها، مما يدل على سيّعتها وصلاحيّتها لكل الأزمان.

8- يقول الإمام الشاطبيّ في موافقاته في بيان صفة العالم الراسخ: " أنّه ناظر في المآلات قبل الجواب على السؤالات ".
9- فكلما ازداد إدراك العالم لشمول الشريعة ومرونتها ومقاصدها وكلياتها ازداد رسوخاً في العلم حتى يصل إلى مقام أهليّة الفُتْيَا والنظر في النوازل.

10- وكلما وقف الداعية على ذلك كانت دعوته على بصيرةٍ ونورٍ، وتربى على يديه جيلٌ راشدٌ مؤهلٌ لحمل الرسالة الربّانيّة والهدى النبوي بالطريقة الأمثل.

11- وعلى قدر إدراك القائد والأمير لها تكون قراراته مسددة وخطواته موفقة بحيث تسير الجماعة باتزان في سيرها لإقامة العدل وتجنب اعوجاج الطريق.

12- فكم من أقوام دعوا إلى أمورٍ تأبى الشريعة نسبتها إليها وقاتلوا عليها فصدوا عن سبيل الله وأفرحوا بذلك قلوب الكافرين وأحزنوا قلوب المؤمنين.

13- فما أشدّ حاجة العاملين للدين جهاداً ودعوة في زماننا إلى إدراك شمول الشريعة وحيويتها ومرونتها أثناء المدافعة والتغيير.

14- وعليه فلمن سأل عن أدلّة فقه المرحلة فجوابه جميع النصوص التي تربط التكليف بالقدرة وكيفية أمثال الأمر الإلهيّ حال العجز الجزئيّ أو العجز الكلّيّ.

فقه المرحلة عند شيخ الإسلام ابن تيمية

يقول شيخ الإسلام:

"فحيثما كان للمنافق ظهورٌ، وتخافٌ من إقامة الحدّ عليه فتنةٌ أكبر من بقاءه، عملنا بآية: {وَدَعُ أَذَاهُمْ}. كما أنّهُ حيث عجزنا عن جهاد الكفار، عملنا بآية الكفّ عنهم والصفح، وحيث ما حصلت القوة والعزّ حُوطبنا بقوله: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ}. اهـ. الصارم المسلول في حكم من سب الرسول ج 1 ص 362

من فقه المرحلة

النظرة الظاهرية للنصّ دون الاستقراء العامّ للنصوص يجعل الجماعة تعمل بسياسة:

- حرق المراحل بدلاً من فقه المرحلة،
واستعدادٍ الخصوم بدلاً من تحيد الأعداء،
والعملي على إنجاز الهدف المعجز وتزكّ الهدف الممكن،
والتمسك بالمسمّيات مع تغييب الجوهر،
وعليه يجب على الجماعات الإسلاميّة أن تجتهد في تحديد المرحلة التي تعمل بها بمُحدّدات واضحة:
- 1- هل نحن في المرحلة المكيّة أم المرحلة المدنيّة أم بمرحلة بين بين أو ترُقُضُ هذا التقسيم أساساً؟
 - 2- هل نحن في مرحلة قوّة أم مرحلة استضعافٍ أو بين بين (مرحلة تمكين جزئي)؟
 - 3- هل نحن في مرحلة التّيه أم الرُّشد أو في مرحلة بداية الخروج من التّيه، هذه كله يجب أن يُحدّدَ لنعرف أيّ نوع من الأحكام نعمل، لأنّ الملاحظ أن الجماعات تعمل تارةً بأحكام التمكين وتارةً بأحكام الاستضعاف فلا تكاد تنضبط.
- بسبب القراءات البتراء والمجدوذة للنصوص والسيرة والعقيدة والفقه

عاشراً: فقه السنن الربّانيّة في الأمم والحضارات:

على الداعية والأخ المسلم أن يفقه سُنَنَ الله في الدعوات والدول، وهي دساتيرٌ ثابتةٌ في حركة المجتمعات وزوال الحضارات، وهذه السُنَنُ سُنَنٌ ثابتةٌ لا تُجامل نبياً مرسلًا ولا ولياً مقرباً، وهي تفعل فعلها بالمجتمعات كما تفعل قوانين الفيزياء والكيمياء فعلها في المادة، وهي تختلف عن السُنَنِ الكونية التي ربما تُحرقُ لَتِييٍ أو وليٍّ، ولكن هذه السنن لا تنخرم ولا تتخلف، والجهل بهذه الدساتير يجعل من الداعية يقف متحيراً أمام الأحداث التي تعصف بالعالم وتستعصي على الفهم.

تمتاز هذه السنن بسمتين متلازمتين:

الثبات والاطراد،

فهي ثابتة لا تتغير إلى سنن أخرى،

ومطرودة إن وجدت مقدمتها ستفضي إلى نفس النتائج، قال تعالى:

{سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا} (سورة الإسراء آية 77)، {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} (فاطر 43)، {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} (سورة الأحزاب 62) المغالبة والقفر على السنن:

1- يجب دفع الأمر الكوني بالأمر الشرعي ولكن مع تحاشي المغالبة:

قال تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}

{فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}

2- كما لا يجوز القفز على السُنَنِ

"إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا ظَهْرًا أَبْقَى وَلَا أَرْضًا قَطَع"

وهذه السنن هي:

أولاً - سُنَّةُ الابتلاء والتمكين

1- التمكين يكون بعد الابتلاء، قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} وقد أسلفنا الذكر عنها في فقه التمكين.

2- الابتلاء بصفة عامّة سنّة الله في خلقه، وهذا واضح في تفسيرات القرآن الكريم، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِيَمَا آتَاكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: 165] وقال سبحانه: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف: 7] وقال جل شأنه: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الإنسان: 2].

مِنْ أَعْجَبِ حُجَجِ الْمُنَافِقِينَ اسْتَدْلَالُهُمْ بِالْإِبْتِلَاءِ عَلَى خَطَأِ الطَّرِيقِ!
كما قال الأول {لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا}!

الابتلاء مرتبّ بالتمكين ارتباطاً وثيقاً، فلقد جرت سنّة الله تعالى ألا يُمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميّز الله الخبيث من الطيب، وهي سنّة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله تعالى أن يبتلي المؤمنين ويختبرهم، ليمحص إيمانهم ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعيّ حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يُمكن أو يبتلى؟ فقال الإمام الشافعي: لا يُمكن حتى يُبتلى، فإنّ الله تعالى ابتلى نوحاً وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلمّا صبروا مكّنهم، فلا بظن أحد أن تخلّص من الألم التّته.

حِكْمَةُ الْإِبْتِلَاءِ وَفَوَائِدُهُ:

لِلْإِبْتِلَاءِ حِكْمٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَهْمِّهَا:

1- تصفية النفوس:

جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، ومعرفة المحق منهم والمبطل، وذلك لأنّ المرء قد لا يُكشف في الرخاء، لكنه تكشفه الشدة، قال تعالى: {أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: 2].

2- تربية الجماعة المسلمة:

وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله: «ثم أتته الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها، طريق التربية لهذه الجماعة، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة، ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودًا، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها، إذن بالصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون»

3- الكشف عن خبايا النفوس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الضلال: «والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكنّ الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مُغَيَّبٌ عن عِلْمِ البشر، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم، وهو فضل من الله من جانب، وعدلٌ من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره وبما حَقَّقَهُ فِعْلُهُ، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه».

4- الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الضلال: «وما بالله - حاشا لله - أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقيُّ لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد، فتتنفي عنها الخَبَث وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصنَّب ويصنقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا

أصلبها عودًا وأقواها طبيعة، وأشدّها اتصالا بالله، وثقة فيما عنده من الحسينين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يُستلمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»

5- معرفة حقيقة النفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم، وهم يزاولون الحياة والجهد مزاولة عملية واقعية، ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها، حقيقة الجماعات والمجتمعات، وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطريق ومسارب الضلال»

6- معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي تعزّ هذه الدعوة عليهم، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من غتّ وبلاء، وبقدر ما يُضخّون في سبيلها من عزيز وغالٍ، فلا يُفترطوا فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»

7- الدعاية لها:

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوة صامته لهذا الدين وهي التي تدخل الناس في دين الله، ولو وهنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يأتيه أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يمضي إلى قومه يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم وإذاهم، ويتابع طريقه حتى يعود بقومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وسنرى ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله).

8- جذب بعض العناصر القوية إليها:

وأمام صمود المسلمين وتضحياتهم، تتوق النفوس القوية إلى هذه العقيدة، ومن خلال الصلابة الإيمانية تكبر عند هذه الشخصيات الدعوة وحاملوها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردد، وأعظم

الشخصيات التي يعتز بها الإسلام دخلت إلى هذا الدين من خلال هذا الطريق.

9- رفع المنزلة والدرجة عند الله، وتكفير السيئات:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، وحطّ عنه خطيئة» (فقد يكون للعبد درجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمله فيبتليه الله تعالى حتى يرفعه إليها، كما أنّ الابتلاء طريق لتكفير سيئات المسلم). كما أنّ للابتلاء فوائد عظيمة منها: معرفة عزّ الرّبوبيّة وقهرها، معرفة ذلّ العبوديّة وكسرّها، الإخلاص، الإنابة إلى الله والإقبال عليه، التضرّع والدعاء، الجلم عمّن صدرت عنه المصيبة، العفو عن صاحبها، الصبر عليها، الفرح بها لأجل فوائدها، الشكر عليها، رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم، معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها، ما أعدّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها، وغير ذلك من الفوائد.

ثانياً - سنّة النصر والهزيمة

النصر يكون لمن أخذ بأسبابه وأعد له العدة الإيمانية والمادية، قال تعالى: {إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}، وقال تعالى: {وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} والنصر قد يُبطئ على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربّنا الله، فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدّها الله: 1- قد يُبطئ النصر لأنّ بنية الأمّة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية و تتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته و شيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً. 2- وقد يُبطئ النصر حتى تبذل الأمّة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، و آخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً، لا تبذله هيّناً رخيصاً في سبيل الله.

3- وقد يُبطئ النصر حتى تُجَرَّبَ الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سَنَدٍ من الله لا تكفل النصر، إنّما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تَكِلَ الأمر بعدها إلى الله.

4- وقد يُبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل ولا تجد لها سنداً إلا الله، ولا متوجّهاً إلا إليه وحده في الضراء، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن الله به، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به.

5- وقد يُبطئ النصر لأنّ الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وضحيتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده و في سبيله، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه، وقد سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الرجل يقاتل حميةً والرجل يقاتل شجاعةً والرجل يقاتل ليُرى، فأَيُّها في سبيل الله؟ فقال "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله".

6- كما قد يُبطئ النصر لأنّ في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقيّة خير، يُريد الله أن يُجَرِّدَ الشرّ منها ليتمحض خالصاً، ويذهب وحده هالكاً، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!

7- وقد يُبطئ النصر لأنّ الباطل الذي تحاربه الأمة لم ينكشف زيفه للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده و ضرورة زواله ، فتظلّ له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يَظَلَّ الباطل حتى يتكشّف عارياً للناس، ويذهب غير مأسوفٍ عليه من ذي بقية.

8- وقد يُبطئ النصر لأنّ البيئة لا تصلح بعدُ لاستقبال الخير والحق والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقرّ لها قرار، فيظل الصراع قائماً حتى تهيباً النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر، ولاستبقائه!

ومن أجل هذا كله و من أجل غيره مما يعلمه الله، قد يُبطل النصر، فتتضاعف التضحيات، و تتضاعف الآلام، مع دفاع الله عن الذين آمنوا و تحقيق النصر لهم في النهاية.
وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه و أداء ثمنه و تهيؤ الجوّ حوله لاستقباله واستبقائه {ولينصرن الله من ينصره إن الله قوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة و أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}.
فوعدّ الله الوثيق المؤكّد المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره، فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله فيستحقون نصر الله القوي العزيز الذي لا يهزم من تولاه ؟ أنهم هؤلاء: {الذين إن مكناهم في الأرض} فحققنا لهم النصر و ثبتنا لهم الأمر { أقاموا الصلاة ،،، }

رحم الله الإمام الشهيد المجاهد السيد / سيد قطب.

ثالثاً -

الابتلاء لكل صاحب دعوة صادقة جماعة كانوا أم فرداً قال تعالى: {أحسب الناس أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين } ، { وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً من المجرمين }

رابعاً - سنّة المدافعة

المدافعة للظالم بحيث لا يعمّ فساده في الأرض، قال تعالى: {ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضل على العالمين}.

تحدّث البيان الإلهي عنها في موضعين من كتاب الله: * قال الله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} (البقرة: من الآية 251)

* {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز} الحج.

في الآيتين نلاحظ:

- 1- أنّ هذه السنّة _ سنّة المدافعة _ تشمل كلّ الناس وليست خاصّة بأهل الإيمان والحق.
- 2- نلاحظ أنّ الآية الأولى تكلمت عن فساد الدنيا والثانية عن فساد الدين.

3- وأنّ هذه السنة هي نعمة من الله تعالى على المؤمنين يمكن للمؤمنين الاستفادة منها كما دخل الصحابة في منعة المشركين بداية الدعوة واستجاروا بالنجاشي في عهد الضعف وأقاموا التحالفات مع المشركين من كنانة في عهد التمكين الجزئي .

4- أنّ سنة دفع أهل الحق لأهل الباطل في الآية الثانية مرتبطة بسنّة أخرى وهي سنّة الانتصار لله تعالى حتى ينصرنا، لأنّها تتحدث عن صراع المبادئ، أمّا الآية الأولى فلم تربط التدافع بنصرة الله تعالى لأنّه صراع دنيا ينتهي للأقوى عادةً .

سنة المدافعة هي عملية تنازُع البقاء للأصلح والأفضل في حمأة صراع الحق مع الباطل، وهنا لا بد من حصر أنواع الصراعات وموقف أهل الإيمان من كل منها:

أولاً- صراع أهل الحق مع أهل الباطل أزليّ قديم مستمر: وهو الذي بدأ من صراع آدم مع إبليس إلى أن يقتل المسيح بن مريم عليه السلام المسيح الدجال.

كانت رحلة الأنبياء تتجلى في بث هذه المبادئ بين الناس، ولكنّ غالبية القوم يجادلون ويستنهضون ويحاربون بكل الأساليب الإعلامية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية إلى أن تصل أحياناً إلى محاولات الطرد والنفي والاغتيال لأصحاب الدعوات، وقد ينشب بينهما حربٌ عسكرية، وفي النهاية تكون العاقبة للمتقين الآخذين بمنهج الله تعالى سبيلاً لهم ووعوا سنّته في كونه، فأعدّوا العُدّة الإيمانية والعلمية والعسكرية، يحوطها

إرادة لا تلين كما هو واضح في قصة طالوت وجالوت، وكيف أن الله نصر الفئة المؤمنة حينما انتفضت قلوبهم انتفاضة إيمانية وأخذوا بسلاح العلم والقوة العسكرية، وعاشت قلوبهم إرادة التمكين في الأرض فكانت الهزيمة لأعدائهم رغم تفوقهم العددي والعتادي.

وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجرّدة.

ثانياً - صراع أهل الباطل مع أهل الباطل:

لعلّ الصراع بين أهل الباطل قد يكون نظرة عقائدية، فيرى الفريق الأول أنّه على الحق ودونه الباطل، ومن هنا تستجيش العاطفة الإيمانية للوقوف قلبياً مع الأقرب للحق، وهذا ما لاحظناه من حرب الروم والفرس، فتمنى المؤمنون أن يُنصر أهل الروم لأنهم أهل كتاب، بل إن الله سماه نصرًا من عنده فقال: {عَلَيْتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ*} في بضع سنين لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرح المؤمنون* بنصرِ الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم}

وقد يكون الصراع صراعاً دنيويّاً لنهب المصالح والسيطرة الدائمة لنيل الشهوات، فما حدث في الحربين العالميتين الأولى والثانية أوضح دليل، فكان اللجوء للتحالفات على أساس مصلحة دون مصلحة، وهذا ما بدأ بإيطاليا بأن تنقلب على حلفائها في الحرب العالمية.

في هذه الحالة على المسلمين احترام العهود والمواثيق والتصرف بناء عليها.

ثالثاً - تدافع أهل الحق مع أهل الحق:

والسؤال المطروح هل الحق يتعدّد؟

لقد قسّم العلماء الحقّ إلى ثلاثة أقسام:

1- حقٌّ مُطلقٌ وهو الله جل شأته.

2- وحقٌّ مُحكّمٌ، وهو ما نزل من الكتاب أو ما حدّث به النبي صلى الله عليه وسلم فيكون نصّاً قطعياً الصّحّة واضح الدلالة.

3- وحقُّ نسبيٍّ، فيكون في مجال الفروع أو أمور محدثات الحياة ما لم يقع نصُّ قطعيُّ الصحة وواضحُ الدلالة، فيكون الاختلاف فيه نسبة إلى الفهم أو عدم وصول النصِّ الصَّحيح، فيتولد في الاختلاف تدافُعٌ للوصول إلى أحقِّ الحقيين، وهذا التدافُعُ أصلٌ في حياة الناس، فهو عاملٌ لتحرك الحياة، والسباقُ الخيريُّ فيه نحو الأفضل والأكمل يكون بارتفاع الهمم وإيضاح معاني الخير ودَرَجاتها وتصاعُدها وأنواعها، فعدم التطور هلاكٌ، وهو منطق الفقه، فالتنافس يشكل عاملاً مهمًّا في تنمية الحياة وترشيد مسارها والتخلص من الأخطاء والانحرافات، ولكن هذه الحصيلة من العمران الحضاري بالأفكار والعلوم والآداب لم تمنع من قيام تناقضات بجانبها أصلها ابتداعٌ أو صراعٌ على السلطة، فكان العمل الإصلاحِيّ الاستدراكي المتنوع متمثلاً بأدب الخلاف هو السبيل لحل الإشكالات إذا خلصت النوايا وبنيت الثقة، متمثلين برأي الشافعيِّ حين قال: رأبي صوابٌ يَحْتَمِلُ الخطأ، ورأيي غيري خطأ يَحْتَمِلُ الصَّواب.

وقد يصل الأمر إلى محاولات للغزو الخارجي بسبب التناقض البشري، فكان الجهاد واضعاً كل خلافاتنا وراء ظهورنا متوحدين لإزالة العدو ومحاولاته.

كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية عندما جاهد التتار مع الأشاعرة والمتصوّفة في (شقحب) وسماههم الطائفة المنصورة كما ذكر ذلك ابن كثير في تاريخه.

يَمُنُّ اللهُ تعالى على الجماعة المجاهدة بالتمكين الجزئي اختباراً لهم وتمحيصاً،

فإن أدّوا حق الشكر وقاموا بواجب التمكين جادّ عليهم بالتمكين الكُلِّيِّ،

وإن لم يكونوا لنعمته أهلاً وتنگّبوا عن أعباء الاستخلاف أركستهم في وهدة الاستضعاف،

{قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}

- 4- تلازم الشقاء مع الفساد والسعادة مع الصلاح، قال تعالى: {ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}، وقال تعالى: {من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنُحْيِيَنَّه حياءً طيبةً}.
- 5- هلاك الظالمين وإبادتهم، قال تعالى: {وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً}
- 6- إزالة النعمة بكفرنها ودوامها بالشكر، قال تعالى: {كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين}، وقال تعالى: {ولئن شكرتم لأزيدنكم}.

خامساً - سنّة التّيه والرّشد:

التيه عند رفض الأمة التكليف والرشد عندما تُحمّل التكليف، قال تعالى: {فإنّها مُحَرّمَةٌ عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين} المائدة.

من التيه إلى الرشد

سيمات عصر التيه:

في عصر التيه تكون الأمة بين حالتين، لا هي داخله في حكم الطغاة ولا هي داخله في شريعة التكليف.

التيه هو مرحلة الاستشفاء لأمة تكاثرت عليها العِلل فكان لا بُدّ من عزلها في أجواء خاصّة لتتلقى التربية الناجعة.

بقاء الرسالة بدون من يحملها أهون عند الله أن يقوم بحملها من ليس لها أهلاً، وانتظار المعجزات الكونية في ذلك لا يُجدي.

لا يُمكن أن يتمّ ذلك إلا من خلال السنن الجارية وليس من خلال السنن الخارقة.

- 1- ترك جهاد الأمة والاقتصار على النخبة، قال تعالى: {قالوا اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون}، وترك الجهاد لم يكن هو مبدأ

العِلل، بل هو نهاية تراكم العِلل النفسية من حب العيش والوَهْن النفسي.

- 2- كثرة الجدل والتعمُّق في الأسئلة التافهة وأخذ الأمر الشرعي بالاستهزاء، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذْبَحُوا بَقَرَةً، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ} {البقرة: 172-173}
 - 3- الاجترار على سفك الدماء (بالمعنى الأدقّ تنفيذ الاغتيالات السريّة) وقصة البقرة إنّما كانت بعد عملية اغتيالٍ سرية.
 - 4- التفرّق إلى أحزاب وجماعات، قال تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا} {البقرة: 145}
 - 5- غياب القيادة الفاعلة وعجزها عن استيعاب العِلل النفسية، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنِّي أَبْلُغُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِي حُقُبًا} {البقرة: 175}
 - 6- التنافس على الموارد، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَجْمًا} {البقرة: 175}
 - 7- وُفُور المَلدّات بدون عناء، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۗ} {البقرة: 175}
 - 8- بلاذة الذوق واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، قال تعالى: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} {البقرة: 175}
 - 9- قسوة القلب إلى درجة التحجّر، قال تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} {البقرة: 175}
 - 10- الإيمان بالحيثيات والشك في الغيبات، قال تعالى: {فَقَالُوا آيَاتُ اللَّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} {البقرة: 175}
 - 11- التشرُّب بتقديس الأصنام المعنوية والمادية، قال تعالى {وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ يُنْسَأُ بِأَمْرِكُمْ بِهِ إيمانكم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (93 البقرة)
- ولكن يبقى السؤال بعد التأصيل هل يصحّ التنزيل على حالنا؟ وإن

صحّ التنزيل على واقعنا فبأيّ مراحل التيه نحن؟ هل نحن في طور الدخول أم في طور الخروج أم بين بين؟

- على ما يبدو أن كل أمة تخرُج لتوّها من الحُكْمِ الجَبْرِيّ الاستبداديّ تبقى تحمل في كَوَامِنِهَا عِلَلَ التربية المُذَلَّة بعد استمرائها للذلّ والهوان، ولعل هذا من حكمة الله تعالى أن يتربّي موسى في بيت عزٍّ ومنعَةٍ بعيداً عن واقع الذلّ الذي عاشه قومه {وَلِئَلْتَصَنَعَ عَلَى عَيْنِي}

- التربية الفرعونية وطول فترة الاستعباد جعلت بني اسرائيل أمة غير قادرة على التحوّل من حالة الاستعباد لحالة السيادة.
- ودخولهم بحالة التقليد فقولهم (اجعل لنا اله كما ،،،) وجدالهم بقضيّة البقره وهو أمر ربّانيّ واضح لا يحتاج للجدل هو محاولة الهروب من التكاليف الربّانيّة، فكانت فتره التيه أو بمعنى الحصار الذي يولد في النفس رغبة عارمة للحرية مهما كانت تكاليفها، فكان الجيل الذي خرج مع سيدنا يوشع بن نون عليه السلم.

سادساً - سُنَّة الاستبدال التي تَطَالُ الدَّوْلَ والجماعات والأمم:

من سنن الله تعالى الثابتة أنه لم يربط التمكين لهذا الدين بفرد أو أمة أو جماعة أو قوم أو بلد عندما اجذبت مكة عن الاستجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم نصره تعالى بأهل المدينة. وعندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وظن البعض أن الإسلام انتهى بموت محمد أنزل تعالى {وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين} آل عمران.

وقال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يعبد محمد فإن محمد قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

ولم يجعل نصره الدين والرسالة حكراً على قوم دون قوم .

عندما تَنكَّبَ العرب عن حمل راية الجهاد ورد صيال الصليبيين حملها الكرد (نور الدين الشهيد وصلاح الدين) ولما تنكَّب الكردُ عنها، ذب عن بيضة الإسلام المماليك ودحروا هجمة التتار (المظفر قطز) ثم حمل راية الجهاد والدفاع عن بيضة الأمة السلاجقة والأتراك (محمد الفاتح)

وكذلك كان في المغرب البربر ومنهم القائد (يوسف بن تاشفين) يَزُدُّ عادية الفرنجة ويستنجد به المعتمد بن عباد. هذا الأمر يدل أن الإسلام رسالة ذاتية القوة وأن البلدان والأقوام والجماعات والأفراد هم من يعتزُّ بحمله وليس الإسلام من يعتزُّ بهم ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ ...} المائدة

فالاستبدال لكل أمة تتولَّى عن حملِ الرسالة وتُصرة الدين بأقوام آخرين سنة ثابتة، قال تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ} محمد. سقوط الأفراد والجماعات على طريق الدعوة والجهاد وبقاء الدين محفوظاً يُخبرنا أن هذا الدين من عند الله ويحذرنا من التخلي عن نصرته.

من سنن الله الغالبة التي لا تُحابي ولا تجامل وتتَّسِمُ بالثبات والاطراد أن القدرات البشرية محدودة العطاء تصل أحياناً إلى درجة النضوب والعجز عن استمرارية العمل لهذا الدين. وهذا ناتج عن محدودية القدرة البشرية وقصور أفراد الجماعة بطاقتهم العلمية والعقلية والبدنية، وعلى مستوى الجماعات قصور التخطيط والرؤية الاستراتيجية البعيدة المدى والملائمة للمتغيرات المتسارعة فوق قدرت الاستيعاب. هنا الجماعة التي كانت لها الصدارة في خدمة الدين تصبح مع

الزمن عاجزةً عن القيام بواجبها، بل قد تكون عقبة في طريق تحقيق هذا الواجب، وهنا يتحوّل دور الفرد والجماعة من الريادة إلى التّصح والإرشاد.

المشكلة أن بعض الجماعات تأبى أن تتنازل عن الريادة بدوافع من الهوى والأمراض الحزبيّة، وربما يدفعها الأمر إلى الدخول في صراعات مع الجماعات الأخرى فيكون الاستبدال بطريقة غير مُشرّفة، هنا يقع الاستبدال، والمعصوم من عَصَمَهُ اللهُ. لذلك علينا نحن من يدّعي العمل للإسلام أن نستعدّ جماعاتٍ وأفراداً لتُسَلِّم الراية لمن بعدنا.

سابعاً - سنّة التغيير

إن الله لا يُغيّر الظروف الاجتماعيّة السيئة في مجتمعٍ ما حتى يغيروا في أخلاقهم وسلوكهم، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}.

فقه التغيير

تمهيد فقه التغيير

تمهيد

بعث الله تعالى الأنبياء والرسل لأداء الرسالة وتغيير الأوضاع الفاسدة في أقوامهم، فبلّغوا وغيّروا، وقد بعث الله كل رسول إلى قومه إلا الرسول صلى الله عليه وسلم بعثه للعالمين. لدى الأحزاب الإسلاميّة إشكاليّة كبيرة في التغيير، فهم يسلكون مسلك التغيير بالعنف والقوة أو بالميزات والأعطيات، هذا الأسلوب ينمي الحالة النفاية التي لا يضمن ولاؤها إلا بالعصا والجزرة وليس بالاندفاع الذاتي، لذلك تشكّل خاصرة رّخوة في التنظيمات مما يحملها على مضاعفة الجهد الأمنيّ لمراقبتها داخل الجماعة. ضيق مساحة الحوار مع المخالف وعدم قدرة الأحزاب على تحمّل الرأي الآخر - ربما لضعف الحجّة - يحمله على العدول عن أسلوب الإقناع العقليّ والتحرك الوجداني لإحداث التغيير المطلوب.

- علاقة الإنسان بالكون والمجتمع تضبطها نواميسٌ وقوانين لا تتغيّر ولا تتبدّل، قال تعالى:

{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ* هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة آل عمران، الآيتان 137-138].
{فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [سورة فاطر، الآية 43].

- الإنسان محرك فاعل ومغير، ومُنْطَلَقُ ذلك نفسه وإرادته {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [سورة الرعد، الآية 11].
أولاً: مفهوم التغيير:

الانتقال من وضعٍ موجودٍ إلى وضعٍ أحسنٍ منشود.
ثانياً: مؤشرات:

- البعد عن الله تعالى.

- ضَعْفُ العبادات وإهمالها.

- اليأس والمَلَلُ وفقدان لذة الحياة.

- انتشار الفساد ووجود خللٍ على مستوى النفس والمجتمع

(الذهنيّات، النظم، القيم، السلوكيات)، لذلك لا بُدَّ من استشعار

المسؤولية أمام هذه الأوضاع وإلا سينزل عقاب الله تعالى:

{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا نَكْمًا خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الأنفال، الآية 25].

- ضعف أو انعدام الإنتاج والعطاء.

- اضطراب سلم الأولويّات.

ثالثاً: مجالات التغيير:

- تغيير الأفكار والقيم والذهنيّات والقناعات.

- تغيير السلوكيّات (السلوك ثمرة من ثمرات الفكر).

- تغيير الوضعيات.

- تغيير القدوات.

رابعاً: قواعد التغيير:

* احترام السُّنَن: البدء بترك الذنوب الكبرى قبل الصغرى، والتدرّج في الوسائل: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم].

* الإرادة الجادّة.

* الصبر على مشاقّ التغيير.

* وجود مُساند، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ يَنْصُرُهُ وَيَالْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنفال، الآية 62].

* حسن التخطيط.

خامساً: خلاصات

- الشعورُ بالألم وبالخطر أولُ خطوةٍ نحو التغيير.
- تحديد أهداف التغيير.

- التدرج في التغيير، قال صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم].

سادساً: شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
الاستطاعة: يسقط الإثم عند العجز عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- أن يكون المنكر معلوماً من غير اجتهاد.
- أن يكون المنكر مجمعاً على تحريمه وليس فيه إختلاف معتبر بين أهل العلم

- أن يكون المنكر ظاهراً من غير تجسّس.

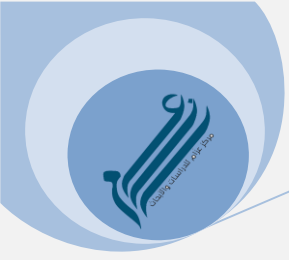
- مراعاةُ التدرّج في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- إلا يُفْضَى الأمر أو النهي إلى مفسدة أعظم، لأنّ الشريعة الإسلامية تحرص على تحصيل المصالح، ودفْع المفاسد، وقد قسّم ابن القيم في "أعلام الموقعين" إنكار المنكر إلى أربع درجات:

- الأولى: أن يزول المنكر ويخلفه ضده.



- الثانية: أن يَقِلَّ وإن لم يَزُلْ بجملته.
 - الثالثة: أن يتساويا.
 - الرابعة: أن يخلفه ما هو أشد منه.
- وخلّصَ إلى أن الدرجتين الأوليين مشروعتان، وأما الثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرّمة.



الفصل الرابع

السياسة الشرعية الرشيدة

أزمة الخطاب الإسلاميّ

مرّ الخطاب السياسيّ الإسلاميّ بثلاث مراحل:

1- مرحلة الخطاب السياسيّ المُتَرَلّ

2- مرحلة الخطاب السياسيّ المُؤَوَّل

3- مرحلة الخطاب السياسيّ المُبَدَّل

مرحلة الخطاب السياسيّ الشرعيّ المنزل (1هـ - 73هـ)

وتبدأ من قيام الدولة الإسلاميّة في المدينة بعد هجرة النبي صلّى الله عليه وسلّم إليها، إلى وفاة آخر خليفة صحابي هو عبد الله بن الرّبير رضي الله عنه (سنة 73هـ)

أهمّ ملامح ومبادئ هذه المرحلة:

1- ضرورة الدولة للدين، وأنّه لا دين بلا دولة

2- ضرورة إقامة السلطة وأنّه لا دولة بلا إمام

3- ضرورة عقد البيعة، فلا إمامة بلا عقد

4- أنّه لا عقد بيعة إلا برضا الأمّة واختيارها والإكراه يجعل منه عقد إذعان

5- لا رضا بلا شورى بين المسلمين في أمر الإمامة

6- أنّه لا شورى بلا حرية

7- أن الحاكمية والطاعة المطلقة لله ورسوله (هنا يجب أن نميّز أنّ الأمّة هي مصدر السلطة ولكنها ليست مصدر التشريع)

8- تحقيق مبدأي العدل والمساواة

9- حماية الحقوق والحريات الإنسانية الفردية والجماعية وصيانتها

10- ممارسة الأمة حقها في المحاسبة والمراقبة والمشاركة في الحكم

مرحلة الخطاب السياسي الشرعي المؤول (73 هـ - 1350 هـ تقريبا)
*أهم ملامح هذه المرحلة:

1- مصادرة حق الأمة في اختيار الإمام وتحول الحكم من شورى إلى وراثة

أسباب قتال الصحابة من أجل الشورى:

السبب الأول: الدفاع عن حقهم الذي جعل الله لهم (وهو اختيار الإمام ومحاسبته وعزله)

السبب الثاني: أن اغتصاب الحكم منكّر وظلم تجب إزالته

السبب الثالث: التمسك بالسنة وهدى الخلفاء الراشدين

السبب الرابع: إدراكهم أن دخول الخلل في موضوع الإمامة سيفضي إلى دخول الخلل في جميع شؤون الحياة.

مذاهب العلماء في اشتراط الإجماع على عقد البيعة

2- مصادرة حق الأمة في المشاركة والشورى

3- غياب دور الأمة في الرقابة على بيت المال

4- تراجع دور الأمة في مواجهة الظلم والانحراف

مذاهب العلماء في الخروج على السلطان الجائر

فسخ عقد الإمامة بالجور، وهنا دُوّنت أول الكتب التي تعتني بفقه السياسة الشرعية.

الأسباب التي أدت إلى شيوع الخطاب المؤول:

1- نظرة أصحاب هذا الخطاب إلى حوادث التاريخ نظرة جزئية

(نظروا إلى المفاسد المترتبة على الخروج على الإمام الجائر دون

النظر على المفاسد المترتبة على تولية الإمام الجائر)

- 2- خلطهم بين مفهوم الخروج السياسي ومفهوم الخروج العقائدي: (ليس كل من خرج على الإمام فهو خارجيٌّ باغٍ، ولو كان مجرد الخروج على الإمام الجائر كافٍ لوصف الخارجين بأنهم خوارج لكان الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير أئمة الخوارج، أمّا الخوارج الحقيقيين هم من خرجوا على عقيدة أهل السنة والجماعة باتباع ظواهر النصوص وبتكفير المسلمين أصلاً واستباحة دمائهم) تبعاً لذلك قد يلزم الشخص وصف الخوارج ولو لم يبرح جوف رحله ولم يحمل السيف على أحد طالما أنه يدين بعقيدة الخوارج.
- 3- شئوع أحاديث الفتن دون فهم لمعناها الصحيح
- 4- شئوع الروح الفردية بسبب الفهم الخاطئ لأحاديث اعتزال الفتن (اعتزال الفتن بدون فهم أحاديثها تسبب في تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)
- 5- شئوع روح الجبر من جهة، والإرجاء من جهة أخرى (الإرجاء دينٌ يُعجب الملوك)
- 6- الغلو في تعظيم طاعة السلطان (حتى أنّ البعض أدخلها في أبواب العقيدة لأهل السنة والجماعة)

الخطاب السياسي الشرعي المبدل (1350 هـ - ؟)

إسقاط الخلافة وفصل الإسلام عن الدولة وكان علي عبد الرازق وكتابه (نظام الحكم في الإسلام) أول محاولة لتأصيل هذا الخطاب تأصيلاً شرعياً.

أهمّ ملامح هذا الخطاب:

- 1- إثبات عدم شرعية الخلافة
 - 2- إثبات مشروعية التحاكم إلى القوانين الوضعيّة
 - 3- إثبات عدم مشروعية الجهاد في الإسلام
- رد شيخ الإسلام مصطفى صبري على عبد الرازق
تصدي العلامة أحمد شاكر للخطاب المبدل و سيد قطب
الازدواجية في الخطاب الإسلامي:

الملاحظ ومن خلال الاستقراء أنّ الحركات الإسلامية لها أربع أنواع من الخطابات:

- 1- خطاب تتوجه به إلى الأتباع مفعّم بالتحشيد والإعجاب بما لديها والتحريض والتعصّب وتسفيه الآخرين.
- 2- خطاب موجّه إلى الحركات الإسلامية، يدور بين الاستيعاب وغالباً يصل إلى التضليل والتبديع والتكفير.
- 3- خطاب موجّه إلى الخصوم، خطاب يدور بين الاستعداد بالعنتريات والمصانعة إلى درجة الميوعة.
- 4- خطاب موجّه إلى الجماهير، يتّسم بالتقيّة وإظهار المحاسن والإسراف بالوعود.

أنواع الخطابات الحزبية التي تطفو على الساحة:

الخطاب المتشائم:

أصحابه ذو طابع سوداويّ ونظرتهم إلى الحياة متشائمة، يتطيّرون بكل دعوة للإصلاح شرّاً ويتردد على ألسنتهم دائماً أنّنا في آخر الزمان وأنّ أمراض الأمّة وتخلّفها مستعصية على كل الحلول، وأنّ الفساد في كثرةٍ والخير في نُدرةٍ والكفر في إقبالٍ والإسلام في إدبارٍ، وأنّ على المسلم الاعتزال اتقاءً لشرور الناس حرصاً على دينه، وأنّ الإسلام سيعود غريباً كما بدأ، وأنّ الفتن أقبلت كقطع الليل المظلم، وأنّ القابض على دينه كالقابض على الجمر، وأنّ عُرى الإسلام سوف تنقُص عروةً عروةً، فنحن بين يدي الساعة وما بقي إلا الدجال، فالموت تحفةٌ لكل مؤمن، وهؤلاء ينقصهم فقه في إنزال أحاديث الفتن على الواقع.

الخطاب الحالم:

يتكلم أصحابه عن أحلامٍ ورديةٍ، فتفهم من محتوى حديثه أن الإسلام سينتصر من الغد، ودولة الإسلام قاب قوسين وخلافة الله تلوح من قريب، ونحن على أبواب القدس، هذا الخطاب يريد حصاداً بلا بذار ونتائج بلا مقدمات، يريد حضارة بلا مراحل وفقهٍ للسنن الكونية

الجارية، يريد زيبياً بلا عناقيد يستعجل الفتح وهو لا يدري عن ألف باءه شيئاً فهو يبني على الرغبة والتمني لا الواقع والإمكانيات، وهؤلاء ينقصهم فقه الواقع والإمكانات، حتى نجني الأهداف لا بدّ من سلك سبيلها دون تواكُلٍ وبطالة.

الخطاب الاشتجاري:

الأصل عندهم في الناس الكفرُ والعَداءُ والاتّهام، وسوءُ الظن عندهم مقدم على حسن الظن، أخذوا فِقْهَهُمْ من السجن فغالوا في أحكامهم وابتُلوا بأربع أمراضٍ: التفسير والتكفير والتفجير، شاهرين سيفَ الجدل والمِراء، ويكفرون حتى من خالفهم بالفروع، فيهم شيء من فقه الظواهر وغلوا الخوارج وجفوة الأعراب، مشكلتهم أنّ تصوّرهم بُنيَ على ردّة فعلٍ لما عاتوه من ظلم الحكام، فهم يحتاجون إلى فقه المآلات وفقه المرحلة.

الخطاب المائع:

وهو الذي فقد هويته وخصائصه وانتماءه وذاب في غيره، مسحور بكل جديدٍ ومعجب بكل وافِدٍ ولو كان مخالفاً للقطعيّات في الدين، يتنازل ويُساير ويتميّع تحت عناوين حوار الأديان وتقارب المذاهب، فَتَحَتْ عنوان حوار الأديان تُحَرِّفُ الأديان، وتحت عُنوان تقارب المذاهب يُسَيِّسُ الدين ويُجَعَلُ منه تكاءةً للسّاسة والبلاط، هؤلاء يعطون لكل وافِدٍ وصف الإسلام ويُضَنِّفون عليه مسحة الدين، فإذا انتشرت الاشتراكية قالوا: وهل الإسلام إلا دعوة للاشتراكية! وإن راجت الديمقراطية قالوا: وهل هي إلا الشورى! حتى أنّ منهم من ادّعى أنّ الإسلام سبق دارون إلى نظريته!

هم يُحاولون أن يصطلحوا مع الليبرالية والحدّثة والعلمانية فدخلوا في السياسة وأكلوا من حلوائها وسكتوا عن أهوائها، وجدت العلمانية فيهم مرتعاً خصباً لنفث سمومها وجعل الدين مَطيّةً لغاياتها، هؤلاء مبتلون بالسّدّاجة وحسن الظنّ الزائد والانهمام النفسيّ والشكّ في الإمكانيات، واستسلاماً للتيارات بحجّة التقارب

والحوار أوّلوا المحكمات ونسفوا الثوابت ولوّوا أعناق النصوص، فكان اجتهادهم مردوداً وفكرهم ممّجوجاً.

الخطاب الاجتراري:

الذي يَجْتَرُّ ما سَلَفَ من المناهج والأفكار، دُعَاتِهِ يُفَكِّرُونَ بعقول الموتى أغلقوا باب الاجتهاد غيرَةً أن يَلِجَهُ من ليس أهلاً له، تعصّبوا لمذاهبهم ومشايخهم، يُعَالِجون مشاكل العصر بفقه قرون الانحطاط الفقهيّ والتقليد المذهبيّ، يعيشون مع الماضي، ليس لهم روح عصرهم! مع أن السلف كانوا يجتهدون لعصرهم، الأمر الذي فتح الباب أمام الفقهاء الوضعيين: يجتهدوا، ويقطعوا أشواطاً بالفقه الدستوري والإداري والاقتصاديّ، شعارُهُم الدائم: ما ترك الأولون للآخرين من شيء! ونحن نقول بل كم ترك الأولون للآخرين، لذلك جاءت مؤلفاتهم تجتُرُّ الحواشي والمتون، ولما أرادوا أن يجتهدوا عادوا إلى الاستنجاة وآداب الخلاء، فكان اجتهادهم لا يعدو أن يكون نُقُولاً وتجميعاً، وفي أحسن الأحوال ترجيحات لا يلتزمون بها. هؤلاء يحتاجون إلى فقه التجديد والاجتهاد.

الخطاب الاختصاري:

الذي يختصر الإسلام في جزء من أجزائه ويضخمه على حساب غيره ويصوّره على أنه الإسلام بكُلِّه، يريدون الإسلام عقيدةً بلا شريعة ودعوة بلا دولة وسلاماً بلا حقوقٍ وتزكيةً بلا جهادٍ وحقاً بلا قوةٍ، فمنهم من ضخّم مسألة تزكية النفس وعميَ نظره عن غيرها، وهذا يأخذ الجهاد ويقول: هذا هو الإسلام، والثالث يعتبر الدعوة أسسه وأساسه وما دونها هباءً! والرابع يجعل من قيام الدولة الإسلاميّة دَيْدَنَهُ وِجْلَ شُغْلِهِ، والخامس يعتبر قمع البدعة نهاية غاية الدين. هؤلاء يحتاجون إلى ترسيخ مبدأ الفقه الشمولي للإسلام.

الخطاب الإفيوني:

وهو الخطاب المُغْرِقُ في القضايا الغيبية بدون تمحيص للأسانيد، مبنيٌّ على ثلاثة مرتكزات:

أولاً: العقيدة الجبرية، يُصوّر الإنسان مسلوب الإرادة وأتّه مُساقٌ إلى مصيره بخيوط القدرة.

ثانياً: يتحدث عن المُخلّص في آخر الزمن وخروج المهدي ونزول عيسى عليه السلام وأنّ مشاكل الأمة لن تنحلّ إلا بهذا المخلص، فكلّ جهد قبل ذلك عناءٌ وهباء.

ثالثاً: يركز هذا الخطاب على اعتقاد مَفادُه أنّ الكون مُسيّرٌ بدولة أولياء باطنية لهم حق التصرف في الكون، فهو كالذي يعالج بالمسكن بدلاً من استئصال العِلة، وهو خطاب تبريريّ لكل الأخطاء، يُبرر الاستبداد بحُجّة طاعة وليّ الأمر، ويُبرر المعاصي بحُجّة أنّها من قدر الله، ويُبرر البدع بحُجّة البدعة الحسنة ويُبرر ترك الجهاد بحُجّة جهاد النفس، ويُبرر الخرافات على أنّها كرامات لأصحابها، ويبرر رواية الأحاديث الضعيفة بحُجّة العمل بها من فضائل الأعمال.

مصادرُ المعرفة لديه الإلهاماتُ والمناماتُ والآثارُ الواهية ، هذا النموذج يحتاج إلى فقه الواقع وضبط مصادر المعرفة.

لابدّ من صياغة الخطاب الرشيد الجامع للأمة

لا بدّ من تبني خطاب إسلاميّ يرشد الصحوة الإسلاميّة ويكون لينة أساسية في المشروع الحضاريّ للأمة وليس عمله كعمل إطفاء الحرائق الذي يعالج العرض دون المرض يوصف الأمراض دون دواء وينشغل بالهدم دون البناء، إنّّه الخطاب الوسطي الإيجابي الشموليّ، يدعو لإسلام التيسير لا التعسير والتبشير لا التنفير والرفق لا العنف والتعارف لا التناكر والتسامح لا التعصب والجوهر لا الشكل والعمل لا الجدل والعطاء لا الادعاء والاجتهاد لا التقليد والتجديد لا الجمود والانضباط لا التسيّب والوسطيّة بدون غلو ولا جفاء، ثابت في الأصول، مرّن في الفروع متدرج في التغيير مرتبط بالسلف متصل بالعصر يُراعي فقه الأولويّات وفقه المآلات وطبيعة المرحلة، ويعي السنن الكونية في بناء المجتمعات دون مُغالبةٍ ولا تقصير ولا انحراف، يعالج الكليات

ولا يفرق في الجزئيات، متوقف بالعبادة يبتدع في المصالح والعبادات

أي من مقومات الدولة تمتلك الحركات الإسلامية؟
تقوم الدولة على مقومات ثلاثة: الشعب والأرض والحكومة، ومن ناحية أخرى يعتمد النظام السياسي على ثلاثة أسس: الأساس الأول: وجود السلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية).

الأساس الثاني: هو الأهداف الثلاثة، وهي العدالة والأمن والنظام الذي يعني الانضباط.

الأساس الثالث: هو وجود ركائز النظام السياسي وهي السيادة، واحتكار قوة القمع والقهر المتمثلة في الشرطة والقوات المسلحة، وقوة العدالة المتمثلة في الحق وسيادة القانون، بمعنى السلطة القضائية والشرطة أي سلطة إنقاذ القانون، والحقوق والواجبات، وركيزتها المواطنة ذلك أن الدولة الإسلامية ليست دولة دينية لا تقبل إلا بمواطنة من دين واحد وإنما تقبل تعدد الأديان في الدولة الواحدة والتي عمادها الجنسية، ومحورها الولاء للدولة الوطنية باعتباره أهم أنواع الولاءات وأسمائها، فهو يعلو على الولاء للأسرة والقبيلة والطائفة أو العرق، أو نحو ذلك مما يسمى بالولاءات الفرعية.

لقد كانت الصحيفة التي كتبها المسلمون مع اليهود هي الوثيقة النازمة للعلاقات بين المواطنين في المدينة.

يغالط كثير من الإسلاميين حينما يقولون الأمة مصدر السلطة وليست مصدر للتشريع (لا يمكن أن يكون التشريع مصدره من الأمة وإنما مصدره الوحي وهذا الكلام ليس على إطلاقه). هذا الكلام يصدق على التشريع المنزل ولا يصدق على التشريع المؤول، لأن كثير من القوانين النازمة للمصالح مما لم ينزل به وحي هو محل نظر أهل الاختصاص ولا مانع من توسيع دائرة

الشورى فيما هو من تقدير أهل الاختصاصات الدنيوية مثل قضايا الأنظمة الإدارية فقد كان المسلمون فيها عالة على الفرس.

بين الديمقراطية والشورى
النظام السياسي الإسلامي ليس نظاما ثيوقراطيا وليس نظاماً
ديمقراطياً وليس مقارنة بينهما وإنما هو نظام ربّاني متميز تماماً
بخصائصه.
فرق كبير بين الشورى التي تنتخب الأفكار والآراء وبين الديمقراطية
التي تنتخب الأعداد والأصوات.
الأولى تفتح لك المجال أمام الإبداع من التفكير والآراء ما يغني
جوانب القضية .
أمّا الديمقراطية فهي تضعك أمام خيارات من الأفكار الجاهزة
وعليك أن تختار منها.
الديمقراطية والحرية عند الغرب صنمٌ من تميرٍ يعبدُه من دون الله
فإذا وصل الإسلاميون من خلاله إلى الحكم أكل ذلك الصنم.
ولكنها تبقى خياراً للانعقاد في مرحلة الاستضعاف.
أسوء ما في الديمقراطية أنّها تُنحّي الدين ، وأفضل ما فيها أنّها
تزودك بالأدوات الضابطة للشورى،
والحرية عند الحركات الإسلاميّة قبل الوصول إلى السلطة حلم،
وبعد الوصول إلى السلطة شبح.
كثير من الجماعات الإسلاميّة وصلوا إلى النظام الثيوقراطي لكثرة
المبالغة في طاعة ولي الأمر.
إشكالية الحرية وعقلية الاستبداد عند الحركات الإسلاميّة إشكاليّة
ليس لديهم جوابٌ مقنعٌ منهم، محاربة الديمقراطية تكون بتقديم
الحل الإسلاميّ البديل، أمّا الاكتفاء بتكفير الديمقراطيين وكفى!
فهذا مأزق يجب أن تخرج منه.
إنّ الحرية عند الغرب تتكون من:

1_ حرية التعبير

2_ حرية المعتقد

3_ الحرية الشخصية

4_ والحرية الاقتصادية والحرية السياسية

وهذه الحُرِّيَّاتُ هي نفسها في الإسلام ولكنها مُقَيَّدَةٌ بقيودٍ أخلاقية مرتبطة بالنصِّ والوحي، أمّا عند الغرب فهي مُقَيَّدَةٌ بالعقل والذوق العامّ، لذلك هي مَحَلُّ اجتهادٍ واستحسانٍ مُتغيّرٍ بحسب رأي الأكثرية حتى وصلوا إلى حرية الشذوذ.

الذي أراه أنّ كل الشعوب مستعبدة في ممارسة قناعاتها بحريّة، الشرقُ مستعبد بالحديد والنار، والغرب مستعبد بالآلة الإعلامية الجبارة التي يمتلكها أصحاب مراكز الضغط السياسي والاقتصاديّ التي تليس الحق بالباطل وتلبس الباطل بالحق وتجعلهم يختارون بناء على ما يُضخُّ لهم من معلومات تُقيّد الذهن وتُرهب التفكير. روبرت موردخ اليهودي صاحب أكبر إمبراطورية إعلامية يستطيع من خلالها أن يصل إلى 300 مليون مشاهد وميزانيته تعادل ميزانية الولايات المتحدة قال مرّة: إذا أراد توني بلير أن يفوز بالانتخابات الحكومية في بريطانيا ما عليه إلا أن يستقل طائرته ويأتي إليّ في استراليا ويجتمع مع موظفي، وفعلاً عمل الرجل بذلك وفاز بالانتخابات.

إنّ ضعف الاجتهاد الإسلاميّ في مأسسة الشورى وجعلها ممارسة قابلة للقياس وتزويدها بالأدوات والآليات، والجمود على الفقه السياسي الذي كتب في قبضة الحُكم العَضوض أضعفنا أمام الاجتهادات الوضعية.

قواعد في السياسة الشرعية

1- إذا عاد المُكَمَّل على الأصل بالنقض سقط اعتباره.

2- لا عبرة بمتوقِّع مع واقع.

3- يُقدّم ما لا يُتدارك فواته على ما يُتدارك أعلى منه أو أدنى.

شرح هذه القواعد التي جاءت في كتاب الموافقات للشاطبي بتطبيقات واقعية

1_ إنَّ محاربة المفسدين شيءٌ مُكَمِّلٌ للجهاد، ولكن لو أدى ذلك إلى نقصان الأصل وهو محاربة العدو الكافر سقط تقديم محاربة المفسدين.

2_ الواقع أنَّ الجيش الحر يُقاتلُ النظام الكافر، وتَوَقَّعُ أنَّه سيحارب الإسلاميين مُتَوَقَّعٌ لا يُقَدِّمُ على الواقع.

3_ قيام الدولة الإسلاميَّة أعلى شأنًا من ردِّ الصائل، ولكنَّ ردِّ الصائل لا يُتدارك فواته، فيُقَدِّمُ على المشروع الإسلاميِّ الذي يمكن أن نتداركه بعد رد الصائل.

الكفار ليسوا سواء

أبو جهل يختلف عن المُطعم بن عَدِي، وكلاهما على دين واحد. أبو لهب يختلف عن أبي طالب، وكلاهما على دين واحد ودرجة قرابة واحدة.

عقبة بن أبي معيط يختلف عن أُبَيِّ البختری بن هشام، ودينهما واحد.

من مرَّق الكتاب (كسرى) يختلف عن من أرسل الهدايا (المقوقس). النجاشيِّ كان يختلف عن غيره من النصارى وهو على النصرانية. التسوية بين الجميع تُخرِجُ منك جاهلاً كبيراً في باب السياسة الشرعية.

من السياسة الشرعية في السيرة النبوية النبوية
تتلخص السياسة النبوية بـ :

تَحْيِيدِ الْخُصُومِ وَكَسْبِ الْحُلَفَاءِ وَتَرْتِيبِ أَوْلِيَّاتِ الْمَوَاجِهَةِ، بَيْنَمَا تَقُومُ بَعْضُ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِاسْتِعْدَاءِ الْمَحَايِدِينَ وَخَسَارَةِ الْحُلَفَاءِ وَالْعَشَوَائِيَّةِ فِي الْمَوَاجِهَةِ. وَهَذَا نَسْرِدُ بَعْضَ الْمَوَاقِفِ مِنَ السِّيَرَةِ:

- 1_ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَطَافَ فِي الْكَعْبَةِ وَحَوْلَهَا ثَلَاثِمِائَةَ وَسِتُونَ صِنْمًا.
- 2_ مَحَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَةَ بِسْمِ اللَّهِ وَأَمَرَ بِكُتَابَتِهَا كَمَا أَرَادَ الْمُشْرِكُ سَهِيلٌ بِسْمِكَ اللَّهُمَّ وَمَحَا نَفْسَهُ عَنْ وَصْفِ الرِّسَالَةِ وَكُتِبَتْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ.
- 3_ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ بَعْدَ رِحْلَةِ الطَّائِفِ فِي جَوَارِ الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيِّ الْمُشْرِكِ وَفِي حِمَايَتِهِ.
- 4_ تَحَالَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ قَبِيلَةِ خُزَاعَةَ وَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ وَمِنْهُمْ الْكَافِرُ، وَلَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ بَلْ كَانُوا يُسَاكِنُونَ الْكَافِرَ.
- 5_ أَمْتَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ مَنْ ارْتَدَّ مِنْ أَمْثَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنِي سَلُولٍ لِلْمُفْسَدَةِ الْمَتْرَبَةِ عَلَى ذَلِكَ مِنَ التَّحْرِيزِ وَالتَّشْوِيهِ الْإِعْلَامِيِّ الْكَافِرِ.
- 6_ اسْتَعَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ بِسِلَاحٍ مِنْ كَافِرٍ هُوَ صَفْوَانُ بْنُ أُمِيَّةٍ.
- 7_ عَفَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الطُّلُقَاءِ وَلَمْ يَشْتَرِطْ عَلَيْهِمْ دُخُولَ الْإِسْلَامِ.
- 8_ خَاطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَلُوكَ الْعَالَمِ بِصِيغَةِ التَّعْظِيمِ وَالتَّبْجِيلِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ.
- 9_ وَافَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِيَّةِ عَلَى تَسْلِيمِ كُلِّ مُؤْمِنٍ يَأْتِي إِلَيْهِ مِنْ قَرِيْشٍ مُهَاجِرًا وَنَقَدًا ذَلِكَ فَعَلًا.
- 10_ أَمْتَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ تَصْحِيحِ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ وَتَرْكِهَا عَلَى بِنَاءٍ مُخَالَفٍ لِقَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى لَا تَتَّغِيرَ قُلُوبُ النَّاسِ.
- 11_ فَكَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَادًا أَنْ يَدْفَعَ ثَلَاثَ ثَمَارِ الْمَدِينَةِ لِلْكَافِرِ مِنْ غَطْفَانَ مِنْ أَجْلِ فَرَطِ تَحَالْفِهِمْ مَعَ الْأَحْزَابِ.

12_ أسلم النجاشي وبقي يحكم دولة كافرة ويخفي إسلامه وما أمره رسول الله بتطبيق الشريعة ولا بالتنحي حتى مات كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

13_ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعِيد بدرٍ "لو كان الْمُطْعَم بن عَدِي حَيًّا وكَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ الْأَسْرَى لِأَطْلَقْتَهُمْ مِنْ أَجْلِهِ" (وفاء له).

علينا أن لا نقع في القراءة البتراء والنظرة العوراء للسيرة النبوية ، فلا يمكن أن نأخذ مشهد صلح الحديبية دون أن نتصور مشهد بيعة الرضوان قبلها ، كما لا يسعنا أن نقرا مأساة أُحُدٍ دون أن ننظر في دلالات حمراء الأسد بعدها.

إنّ الأيادي التي كانت تمتد للصلح في الحديبية مع المشركين كانت قد امتدت لتعطي بيعة الموت قبلها من أجل نصره هذا الدين وأن الجراح النازفة في أحد كانت تُضمد في موقعة حمراء الأسد في اليوم الثاني.

التقيّة السياسية عند الجماعات الإسلاميّة التقيّة السياسية:

يشيع عند المثقفين الإسلاميين أنّ التقيّة من لوازم التشيّع، وأنّه شيء منكر بالعموم لا يجوز فعله بحال! وهذا خطأ كبير، فقد أذن تعالى للأمة أن تتقي من أعدائها وهي في حالة الاستضعاف والضرورة بضوابطها ، قال تعالى:

{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاهُ وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}. [سورة آل عمران: 28].

قد تجتهد جماعة ما بإصدار بيان أو خطابٍ فيه مجاملةٌ أو إجمال يحتملُ عدّة تفسيرات لتحقق بذلك مكسباً سياسياً يرتقي إلى درجة الضرورة، فتقوم الجماعة الأخرى المتربصة بها لتصف البيان بأنّه بيان الذلّ والعار والانبطاح والمولاة لأعداء الله، والمقصود من ذلك هو دغدغة عواطف الحاضنة الشعبية لتنصرف إليهم بدلاً من

أن تبقى ملتفة حول الجماعة الأخرى المنافسة لها ، مما يضطر الجماعة الأخيرة التي تمارس التقية أن تُصدر عشرات البيانات لتبرّر البيان الأول وكأنّ العدو قد نام وغفل ، فإذا بها تخسر أضعاف ما كانت ترجوا أن تكسبه ، ولا تستطيع إرضاء المنكرين حتى بعد التبرير . هذا الفعل كمن يُنَيِّهُ الدُّبَّ لقذف الحجر !
قال عمر رضي الله عنه (حُقَّ على كلِّ مسلم أن يُقبَّل رأس عبد الله بن حذافة السّهمي، وأنا أولكم)
ماذا فعل عبد الله بن حذافة؟ قبّل رأس ملكٍ ظالمٍ كافر قاتلٍ للمسلمين من أجل إطلاق الأسرى المسلمين فحمد عمر له هذا الفعل!

هنا لا بُدّ من المفاصلة بين مصطلح الكَيْد السياسي والنفاق السياسي والانتحار السياسي والمشاركة السياسية والتقية السياسية والعهر السياسي والتسقيط السياسي والتكفير السياسي. أصبحنا بحاجة لتوضيح كثير من القضايا وهي من المُسلّمات بسبب الخلط بين مفاهيم الولاء والبراء ومسائل المعاملات والسياسة الشرعية والمدارة .

نصوص لعلماء الأمة في السياسة الشرعية:

*وسائر العبادات من الصلاة والجهاد وغير ذلك كل ذلك واجب مع القدرة ، فأما مع العجز فإن الله لا يُكَلِّف نفساً إلا وسعها. ولهذا أمر الله المُصلِّي أن يتطهّر بالماء ، فإنْ عدمه أو خاف الضرر باستعماله لشدة البرد أو جراحة أو غير ذلك تيمّم صعيداً طيباً فمسح بوجهه ويديه منه. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين: صلّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب، فقد أوجب الله فعل الصلاة في الوقت على أي حال أمكن، كما قال تعالى: {حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ، فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون}

من كتاب: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ج 1 ص 127.

*الكتاب: "الإتقان في علوم القرآن" النوع السابع والأربعون في ناسخه ومنسوخة:

ما أمر به لسبب ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح، ثم نسخ بإيجاب القتال. وهذا في الحقيقة ليس نسخاً، بل هو من قسم المنسأ، [ص: 650] كما قال تعالى (أو تُنْسَأ) فالمنسأ: هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف، وليس كذلك، بل هي من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لِعِلَّة تقتضي ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله.

*قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: (والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم بحكم القرآن، فإن قومه لا يُقرُّونه على ذلك، وكثيراً ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضياً، بل وإماماً، وفي نفسه أمورٌ من العدل يُريد أن يعمل بها، فلا يمكنه ذلك، بل هناك من يمنعه ذلك، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها) (218/19)

*قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في الصارم المسلول 413/2: فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح عمّن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأمّا أهل القوة فإنّما يعملون بآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون).

قلت: (وكأنّ شيخ الإسلام رحمه الله تعالى جعل من أخذ الجزية معياراً لحال القوة ولحال الضعف، وللإنكار على من أخذ بالعزيمة نظر والله اعلم .. انتهى)

*لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدينيوية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدينيوية، وتخرص على إبادتهم وجعلهم عملاً وخدماء له. نعم، إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام، فهو المتعین، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدّمة. والله أعلم" انتهى تفسير السعدي (ص 436 ، 437).

من كتاب "أعلام الموقعين عن رب العالمين" لابن القيم الجوزية - الجزء الرابع:

قال **ابن عقيل**: السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرّعه الرسول _صلى الله عليه وسلم_ ولا نزل به وحي، فإن أردت بقولك " لا سياسة إلا ما وافق الشرع " أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل ما لا يجده عالم بالسيّر، ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف كان رأياً اعتمدوا فيه على مصلحة، وكذلك تحريق **علي** كرم الله وجهه الزنادقة في الأخاديد، ونفي **عمر** نصر بن حجاج.

قلت: هذا موضع مرّلة أقدام، ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك في معتزك صعب، فرّط فيه طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجروا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدوا على أنفسهم طرقاتاً صحيحة من الطرق التي يُعرف بها المحق من المنبطل، وعطلوها مع علمهم وعلم الناس بها أنّها أدلة حق، ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع، والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة والتطبيق بين الواقع وبينها، فلما رأى ولاة الأمر ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا

بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة فأحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها مصالح العالم، فتولّد من تقصير أولئك في الشريعة وإحداث هؤلاء ما أحدثوه من أوضاع سياستهم شرّ طويل، وفساد عريض، وتفاقم الأمر، وتعدّز استدراكه، وأفرط فيه طائفة أخرى فسوّغت منه ما يناقض حكم الله ورسوله، وكلا الطائفتين أتيت من قبلي تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله، فإن الله أرسل رُسُلَه وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العقل، وأسفر صبحه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره، والله تعالى لم يَخْصُرْ طُرُقَ العدل وأدلته وأماراته في نوع واحدٍ وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدلّ وأظهر، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأيّ طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها.

والطُرُقُ أسبابٌ ووسائل لا تتراد لذواتها، وإنّما المراد غاياتها التي هي المقاصد، ولكن نبّه بما شرّعه من الطرق على أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرّعه وسبيل للدلالة عليها، وهل يُظنُّ بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟ ولا نقول: إنّ السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة، بل هي جزء من أجزائها وباب من أبوابها، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحى، وإلا فإذا كانت عدلاً فهي من الشرع، فقد حَبَسَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في تهمة، وعاقب في تهمة لما ظهرت أمارات الرّيبة على المتهم، فمن أطلق كلا منهم وخلق سبيله أو حلفه مع علمه باشتهاؤه بالفساد في الأرض ونقب الدور وتواتر السرقات ولا سيما مع وجود المسروق معه. وقال: لا آخذه إلا بشاهدي عدل أو إقرار اختيارٍ وطوعٍ فقوله مخالف للسياسة الشرعية، وكذلك منَعَ النبي صلى الله عليه وسلم الغالّ من الغنيمة سهمه، وتحريق الخلفاء الراشدين متاعه، ومنع المُسيء على أمين سلب قتيله، وأخذ

شطر مال مانع الزكاة، وإضعافه الغرم على سارق ما لا قطع فيه، وعقوبته بالجلد، وإضعافه العُزْم على كاتم الضالة، وتحريق **عمر بن الخطاب** حانوت الخمار، وتحريقه قرية يباع فيها الخمر، وتحريقه قصر **سعد بن أبي وقاص** لما احتجب فيه عن رعيتته، وحلقه رأس نصر بن حجاج ونفيه، وضربه صبيغاً بالدرّة لما تتبع المتشابه فسأل عنه، إلى غير ذلك من السياسة التي ساس بها الأمّة فسارت سنة إلى يوم القيامة، وإن خالفها من خالفها.

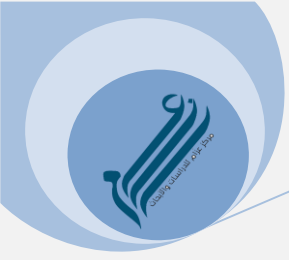
ولقد حدّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في الزنا بمجرد الحَبَل، وفي الخمر بالرائحة والقيء، وهذا هو الصواب، فإن دليل القياء والرائحة والحَبَل على الشرب والزنا أولى من البينة قطعاً، فكيف يُظنُّ بالشرعية إلغاء أقوى الدليلين، ومن ذلك تحريق **الصدّيق اللوطي**، وإلقاء أمير المؤمنين **علي** -كرم الله وجهه- له من شاهق على رأسه، ومن ذلك تحريق **عثمان** المصاحف المخالفة للمصحف الذي جمع الناس عليه، وهو الذي بلسان قريش، ومن ذلك تحريق **الصدّيق** الفجاءة السلمي، ومن ذلك اختيار **عمر** رضي الله عنه للناس أفراد الحج وأن يعتمروا في غير أشهر الحج، فلا يزال البيت الحرام معموراً بالحجاج والمعتمرين، ومن ذلك منع **عمر** رضي الله عنه الناس من بيع أمهات الأولاد، وقد باعوهن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة **أبي بكر** رضي الله عنه وأرضاه، ومن ذلك إلزامه بالطلاق الثلاث لمن أوقعه بفم واحد عقوبة له كما صرح هو بذلك، وإلا فقد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم **وأبي بكر** وصدرا من أمارته هو يجعل واحدة، إلى أضعاف ذلك من السياسات العادلة التي ساسوا بها الأمّة، وهي مُشتقّة من أصول الشريعة وقواعدها.

وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل،

وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح، وفاسد؛ فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسم لها، والباطل ضدها ومنافيتها، وهذا الأصل من أهمّ الأصول وأنفعها، وهو مبنيّ على حرف واحد، وهو عمومُ رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى كلّ ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأتّاه لم يُخَوِّجْ أمّته إلى أحدٍ بعده، وإثما حاجتهم إلى من يُبَلِّغُهُم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص: عمومٌ بالنسبة إلى المرسل إليهم، وعمومٌ بالنسبة إلى كلّ ما يحتاج إليه من بعث إليه في أصول الدين وفروعه؛ لرسالته كافية شافية عامّة، لا تُخَوِّجْ إلى سواها، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحقّ الذي تحتاج إليه الأمّة في علومها وأعمالها عمّا جاء به.

نتيجة:

نرى أنّ كثيراً من التدابير السياسية راجعٌ للمصالح المرستة وأنّ المنصوص عليه في السياسة الشرعية قليل، ممّا يجعل المجال مفتوحاً للاجتهد والاختيار على ما تقتضيه المصلحة، فالأصل في السياسة الشرعية الإباحة والابتداع من وسائل الضبط وما يتحرى به العدل وما يكون أقرب لتحقيق مصالح الرعية إلا ما دل الدليل على حرمة...



الفصل الخامس

خارطة الطريق للمنهج الحركي الرشيد

رؤية وحلولٌ أولية لتصحيح مسار عمل الإسلاميّ
لا يمكن للحل أن يُنشأ عن طريق كتابة بنود وتنظير على الورق، هو
يتمخض عن حركة أمّة و صيرورة أحداث، ليندفع المولود
الجديد بعد مخاض قد يكون مؤلماً وعسيراً.
الأمم التي ترتع في الفساد زمنا وتقطع فيه مسافة تحتاج أن
تقطع نفس المسافة في الإصلاح ، خصوصاً أنّ الرأي العام لا
يتشكل الأمن قراءة الأحداث لا من قراءة الأفكار، هذا و ليس
بالضرورة أن يكون كياناً حزبياً ولا منهجاً فكرياً انفرادياً، قد تكون
دعوة تجديد على غرار دعوات العلماء والمصلحين!
والمُجدِّدون على رأس كل قرنٍ ليس يدعاً، بل من رحمات الله بأمم
لم يعد فيها نذير.
نحتاج إلى لِيْنٍ وأخلاق وآداب "جماعة التبليغ" وهم يعتبرون
[مدرسة سلوكية وتربوية]
نحتاج إلى فهم وعلم وعقيدة "أهل الحديث" وهم يعتبرون
[السلفية وطلاب العلم الشرعي]
نحتاج إلى الفهم السياسي وفقه الواقع عند "الأخوان وأمثالهم" فهم
مدرسة [أحزاب سياسية]
نحتاج إلى الخبرة العسكرية والقتالية عند "الجهاديين" وهم مدرسة
[السلفية الجهادية]
نلاحظ أن كافة المدارس والأحزاب الإسلاميّة لا تستطيع
التّجّاح بمفردها ولا بإقصاء غيرها.
"معادلة بسيطة"
[عالم + داعية + سياسي + مجاهد = بناء الدولة]
- التاريخ لا يسير باتجاه واحد

في الوقت الذي كان يَنْحَسِرُ مُلْكُ المسلمين العرب عن الأندلس كان المسلمون الأتراك ينساحون في القسطنطينية وشرق أوروبا.

ما يتعلق بهذا الطرح كثيرٌ جداً وشائك، والساحة مُغرقةٌ بالتيارات وهذا من أسباب المآسي. إنشاء تيار جامع قد يكون مستحيلاً بالمعطيات وحتى منطقياً، وإنشاء تيارٍ مستقلٍ عودةً ودخولٍ مُجدِّداً في دوامة الحزبيات المرهقة لكاهل المسلمين! ألا ترون معي إخواني أنّ هذا الاختيار يعني أننا سنمشي على نفس الخطوات التي سارت عليها التيارات السابقة، بل بنفس المُبَرَّرات والدوافع = تيار جديد مخلص!

قد نتفادى المطبات، ولكن لا يمكن تفادي أكبر مطبة ومُولدة المطبات وأمها، الحزبية و بناتها المعرفوات كالعصبية - الإقصاء - الانحصار - التصارع - التمنهج الحزبي، الخ، و من ثمة الابتعاد رويداً عن الأصل الذي لا بدّ العودة إليه والذي "لا يقوم إلا على الشمولية والاستيعاب والتمسك بأول العهد" فأنتى يتحقق ذلك، يَلزَمُه مراحل صحيحة، و لكن تقريباً كلّ الطرق اتُّخِذت و الأساليب جُرِّبت.

جربت الأحزاب السياسية، التنظيمات الجهادية، إقامة دولة، فمنهم من يحاول سدّ ثغرة فيُخَدِثُ ثغرة أخرى، يحاول التركيز على جزء من الشريعة مفقودٍ فيفقد بسببه جزء آخر، يحاول الاستيعاب يقع في اللاواقعية والصدام مع باقي الأحزاب والحاضنة، الأمثلة كثيرة في كل التيارات، بين الدعوية والجهادية والسياسية والتعليمية وو، والميلان مستمرّ رغم رغبة كلّ جديد في تعديل القوام!

هل يجب لفظ كل التيارات و ما حملته، أم هل يجب الاستفادة من منجزاتها والاعتبار من أخطائها. هل يجب تجميع نتائجها والبناء عليه، هل و هل. قد قدّموا ما عندهم و لهم ما كسبوا وجزى الله خيراً مُحسنهم، لكننا لم نصل بعد للمطلوب، و الحكمة الربّانية بالغة. هذه مجرد ومضات، و سيكون الخلاص ربّانياً و من تدبير الرب حكيم .

استلهاهم التجربة والتاريخ

قراءة في حديث القرون الخيرية الأربعة

المتأمل في سيرورة الدعوة الإسلامية من فجرها الأول يلحظ أنّها قامت على ثلاث محاور:

1- محور العلم، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} {1} {خَلَقَ
الإنسان مِنْ عَلَقٍ} {2} {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} {3} {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} {4} {عَلَّمَ
الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ} {5}

كانت أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أوّماً إلى العلم بالإشارة إلى وسيلته وهي القراءة.

2- محور العبادة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُرْمِلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} لن يكون للإسلاميين عز السلف ما لم يكن ليئلهم كليل السلف.

3- محور الدعوة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2)}

وكان من سمات هذه الدعوة هو الربانيّة، وكان الجهاد الربانيّ خادماً للدعوة وفرعاً عنها، وكان الجهاد أيضاً جهاداً ربانياً واليوم عندنا دعوة وجهاد ولكنها دعوة حزبية وجهاد حزبي لا يمتُّ للربانيّة بصلة الأعلى مستوى بعض الأفراد

هذه السور الثلاث كانت أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي التي رسمت معالم الدعوة الأولى

جاء حديث القرون الثلاث والذي ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "خيرُ الناس قَرْنِي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: ثم يتخلف من بعدهم خلفٌ تسبقُ شهادةُ أحدهم يمينه ويمينه شهادته"

روى البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، قال عمران: لا أدري أذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعد قرنين أو ثلاثة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ بعدكم قوماً يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، ويتذرون ولا يفون، ويظهروا فيهم السيئات"

المتدبر للحديث ورواياته يقف على ملاحظتين:

1- المتدبر للحديث يجد أنّ المراحل والقرون هي ثلاثة أو أربعة على حسب ما شك الراوي، هناك من بنى على الأقل، ولكن طالما أنّ الكلام عن الخيرية والطمع في الخير فطرة للإنسان. سوف نبني على الأربعة وليس على الثلاثة.

2- وأنّ الخيرية غير مقرونة بصفة أو مزية، لأنّ الله عزّ وجل عندما تحدث عن خيرية الأمة ربط ذلك بالمزية، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} آل عمران

فما هي المزايا التي تميّز بها كلّ قرن حتى حاز هذه الخيرية؟ ولماذا لم تُجمل القرون الأربعة بحكم واحد في الخيرية؟ الآن نأتي لسبر هذه القرون الأربع:

- **القرن الأول:** وهو عصر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، في هذا العصر كانت الخيرية في أنّ المحاور الثلاثة (العلم - العبادة - الدعوة) كانت تسير بشكل متوازي لا يطغى فيه جانب على آخر. في العبادة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس اجتهاداً في العبادة وقيام الليل، وفي العلم كان العدد محصوراً فيمن يُفتي، وبدأت تتشكل مدرسة النص ورأئدها عمر رضي الله عنه ومدرس الرأي ورأئدها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

- أمّا الدعوة فقد تضاعف عدد المسلمين أضعافاً كثيرة وكان دخول الناس في الإسلام أحبّ إلى عمر رضي الله عنه من جلب الجزية.
- **أمّا القرن الثاني:** الذي برزت فيه الدعوة والجهاد، ولا نقول أنّ العلم والعبادة غائبة، ولكن كانت الدعوة هي الجانب الأميز حيث بلغت دولة الإسلام من بواتيه إلى الصين ودخل الناس في دين الله أفوجاً وكسب الإسلام شعوباً كاملة ووصل عقبة إلى المحيط.
- **في القرن الثالث:** أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية تراجعت العبادة والدعوة ولم يذكر التاريخ أنّ العباسيين كسبوا أراضاً أو شعوباً جديدة إلى الإسلام وكان جهادهم هو للحفاظ على حدودهم وهمتهم منصرفة إلى العلم والتصنيف، وقد ظهر جلياً الأئمة الأربعة وقوي التأليف والتدوين والترجمة، ولكن الترجمة كانت ترجمة استجلاب من الثقافات الأخرى ولم تكن تصديراً لعلومنا الإسلاميّة وخدمة للدعوة وتسهيل الفهم على الأعاجم.
- **في القرن الرابع:** وهو بداية مرحلة الانحدار، مالت الأمّة إلى الملذات والترف وظهر كردّة فعل العبّاد من المتصوفة والزهاد وحلق الذكر، ولا نقول أنّها لم تكن موجودة ولكنها في هذا القرن كانت أوضح وأجلى، فكان الجنيد وأبو علي الدقاق وذو النون المصري ورجالات الرسالة القشيرية.
- **ثم جاء القرن الخامس:** فإذا بالأمّة قد توقفت الدعوة عند حدودها التي بدأت تتناقص، وصار العلم متوقفاً على الفروع المذهبية وأغلق باب الاجتهاد ومال المتصوف والعبّاد فيها إلى التخريف، وهي المرحلة التي انتهت بالسقوط العسكري للأمّة أمام حجاج التتار.
- واليوم إن أرادت الحركات الإسلاميّة أن تُصحّح مسارها وتستترشد طريقها لا بُدّ أن تعود لما بدأت به قرون السلف وتفعيل المحاور الثلاثة، رحم الله الإمام مالكا يوم قال: "لن يصلح آخر هذه الأمّة إلا بما صلح به أولها".

صراع الكليات والمواجهة الشاملة لأجل ترشيد الحركات الإسلامية:

من أسباب الهزائم المتلاحقة للحركات الإسلامية أنهم يخوضون معركة جزئية مع عدو يمارس حرباً شاملة، حتى إنّ كثيراً من طاقات هذه الحركات تُصرف في النزاعات البينية بدل أن تتوجه للخصوم الذين يضعونهم اليوم بكفة واحدة، الأمر الذي أفقد الحاضنة الشعبية والثقة بمشاريع هذه التيارات، حتى قال البعض:

لو كانت الحركات الإسلامية قادرة على حلّ مشاكل الأمة لحت مشاكلها البينية أولاً!

فما يكسبونه بالجهاد يخسرونه بالسياسة، وما يكسبونه بالسياسة يخسرونه بالاقتصاد، وما يكسبونه بالاقتصاد يخسرونه بالفكر.

إلغاء ونسف الحركات الموجودة على الساحة مُحال، وإيجاد حركة بديلة زيادة في التحرّب وإضافة جديدة للانقسام، والحق مبثوث في جملة الأحزاب.

التكامل بين هذه الحركات موجود ولكن التواصل غائب:

هناك من يطرح رؤيةً لا أعرف مدى نجاعتها:

المُتأمل بالحركات الإسلامية اليوم يجد كلّ فئة تُضخّم عندها جزءاً من أجزاء الدين وغالت فيه على حساب المشهد الكلي.

لو حولنا عمل هذه الحركات إلى حركة عضوية متناسقة من خلال نزع بذور الصراع بينها أولاً ثم اعتبار كل ما تقوم الحركة الأخرى مُكملاً لما يقوم به غيرها. المزج بين هذه المناهج والمشاريع يُحدث شيئاً من التوازن، وذلك بتوظيف جهد الآخرين بدلاً من تضليله، بهذا المزج ينخفض عند جماعة العمل السياسي المصلحي ما غالوا فيه ويرتفع عندهم معدل التزكية والجهاد، وكذلك ينخفض معدل الغلوّ في الجهاد عند البعض ليرتفع معدّل السياسة، وينخفض عند الثالث الإغراق في التنظير ليفتح عينه على الواقع.

وهكذا نصل إلى حركة إسلامية تمتاز بالشمول والتوازن وتنظر للمخالف على أنه المُكَمَّل وليس النَدَّ.

لكن هذا الأمر يحتاج منا إلى دعامين:

أ- أن يتولى حمله والترويج له علماء ربّانيّون هم محل ارتضاءٍ من الجمهور الأوسع من الأمّة، لم يُحسَبوا على حزب بعينه.

ب- أن نتلمس هذا الاعتدال من خلال الوقوف بين صريحٍ وصحيح النصوص وليس بين مناهج الجماعات.

فإنّه مما يعلو به صوت النكير والنذير العريان على أحزاب تتصارع على الجزئيات في الزمن الذي يتصارع العالم فيه على الكليات، ويغيب اتفاقنا على الموجود ويشتد نزاعنا على المفقود.

تحديد الثابت والمتغير في الشريعة

الجمع بين المرونة والثبات من خصائص الشريعة الإسلامية تعرف المرونة بأنها هي (الحد الفاصل بين الثبات المطلق الذي يصل إلى درجة الجمود، والحركة المطلقة التي تخرج بالشيء عن حدوده وضوابطه، أي إن المرونة حركة لا تسلب التماسك، وثبات لا يمنع الحركة)

في كلّ منظومة فكرية أو أيديولوجية هناك الدائرة الصلبة والدائرة المرنة

هناك من يظهر الإسلام بمرونة مفرطة تشابه الماء الذي يأخذ شكل الإناء الذي يوضع به

وهناك من يظهره بمظهر التصلب المفرط كالجليد الذي يكسر كل إناء يوضع به

في الإسلام هناك دائرة صلبة (العقائد العبادات المحرمات اليقينية) {لا أعبد ما تعبدون}

وهناك الدائرة المرنة (الوسائل والأساليب والسياسة الشرعية) التي يناور فيها السياسيون (امحها يا علي، اكتب محمد بن عبد الله)

شواهد المرونة في القرآن

قال تعالى: **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**. وقال تعالى: **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**

والشورى: وهي مبدأ إسلامي ثابت، وتتمثل المرونة هنا في أنه لم يُحدد شكل معين للشورى، ولا ما هي الصور و المسائل التي تجري فيها الشورى، ومن هم أهل الشورى وما هي إجراءاتها، وهل نتيجتها ملزمة أو لا

وتتمثل المرونة أيضا (في عدم تحديد شكل معين للشورى، يلتزم به الناس في كل زمان وكل مكان فيتضرر المجتمع بهذا التقيد الأبدى، إذا تغيرت الظروف بتغير البيئات أو الأعصار أو الأحوال شواهد المرونة في السنة النبوية

يتمثل الثبات والمرونة معا في موقفه صلى الله عليه وسلم من وفد ثقيف وقد عرضوا عليه أن يدخلوا الإسلام ولكنهم سألوه أن يدع لهم اللات والعزى التي كانوا يعبدونها في الجاهلية فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، كما سألوه أن يعفو من الصلاة فقال صلى الله عليه وسلم: **((أما كسر أو انكم بأيديكم فسنعفيكم منه وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه))**. فهو صلى الله عليه وسلم أمام العقائد لا يتنازل ولا يترخص كما في أمر اللات وأمر الصلاة، وأما في الكيفيات ففيها فسحة للترخص والمسامحة كما في كسر الأوثان بأيديهم.

وكمثال آخر يؤكد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الثبات تطبيقه للحدود بغض النظر على من يقام عليه الحد ومن ذلك ما ورد في قصة المخزومية التي سرقت وحاولت قريش تخليصها بشفاعه أسامة بن زيد رضي الله عنه لها.

ويمثل جانب المرونة عندما نهى صلى الله عليه وسلم إقامة حد السرقة في الغزو

ومثال ذلك ما أورده البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثٌ عَاهَدَهُمْ قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ يَكْفُرُ لَنَقَضْتُ الْكُعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ وَبَابٌ يَخْرُجُونَ). قال ابن حجر موضحاً هذا المعنى: (ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة، ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه). وعلق النووي على هذا الحديث بقوله: (وفي هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام منها: إذا تعارضت المصالح أو تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدئ بالأهم؛ حتى في المصادر التشريعية هناك المصادر الثابتة (القرآن السنة الإجماع)

وهناك المصادر المرنة أدوات الاجتهاد (القياس، الاستحسان، الاستصحاب، المصالح المرسلة، سد الذرائع) الخوارج ومن ينتج فكرهم جعلوا من الإسلام دائرة واحدة صلبة فتكسروا لأنهم لا يستطيعون المناورة، فينزلقون في مزالق التكفير والمرجئة ومن ينتج فكرهم جعلوا من الإسلام دائرة واحدة مرنة فتميّعوا ومناوراتهم تكون على كلِّ الدائرة فينزلقون في مزالق الكفر.

الحركة الإسلامية بين (الرخصة والعزيمة) السياسية تعاني الحركة الإسلامية أزمة حقيقية في تحديد الموقف المناسب بين الرخصة والعزيمة السياسية منها والجهادية الرخصة في الشرع "ما ثبت على خلاف دليل شرعي لمعارض راجح"

وقال الآمدي: الرخصة: ما شرع من الأحكام لعذر مع قيام السبب المحرم يقول سفيان الثوري الفقه الرخصة من ثقة والشدة يحسنها كل أحد.

معرفة قدرات الأفراد لدى الجماعة هي التي تحدد إيقاع السير وإمكانيات المواجهة قبل اتخاذ القرار الجهادي هو الضامن لنجاح القيادة في تحريك الجماعة نحو غايتها القيادة التي تتخذ قرارها دون معرفة لقدرات أفراد الجماعة قد تسوقها بذلك إلى الانتحار والتهلكة جاء في الحديث الصحيح (ما ينبغي لمؤمن أن يهين نفسه قالوا كيف يهين نفسه يا رسول الله قال يعرض نفسه من البلاء ما لا يطيق)

لم يفرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب والموجأة على الأنصار يوم بدر وما قرر الحرب إلا بعد موافقتهم، فما بال البعض يريد أن يزعج الأمة في محاربة العالم ودون أن توكله الأمة بقرارها السير على سير الأقوى يؤدي إلى تساقط الأفراد في طريق الدعوة والجهاد حال نفاد الطاقة لأنه من المسلم به بدهة تفاوت البشر بالقوة والتحمل وهذا التفاوت وجد حتى بين الأنبياء فأولوا العزم من الرسل ليسوا كغيرهم من الأنبياء والسير على سير الأضعف قد يؤدي إلى تأخر الحصاد ولكنه يحافظ على تماسك الجماعة والمحافظة على تماسك الجماعة مع تأخر الوصول والحصاد خير من تفتيت الجماعة مع سرعة الوصول والحصاد، كما أن تخفيف الصلاة مع تكثير الجماعة أولى من إطالة الصلاة مع افتتان بعض المصلين بترك الجماعة، لذلك كان التوجيه النبوي للأمة أن تسير على سير الأضعف لا ينبغي للأمير أن يحمل الأمة على العزيمة كرها وإن أخذ بها في خاصة نفسه

هاجر عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاهراً متحدياً وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً موارياً ليس لأن عمر أشجع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن فعل عمر يبقى تصرف شخصي وفعل رسول الله محل إقتداء لو فعل ذلك لشق على أصحابه المتابعة.

حتى في قضية الجهاد ذروة سنام الإسلام كان يتخلف عن الغزوة شفقة بأئمة

(لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله)

والمتتبع لكثير من أحاديث السنة يجد امتناع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كثير من الأعمال التي يحبها لكنه يمتنع خشية أن تفرض على أمته كما أمتنع عن الخروج للتراويح مشكلة بعض الجماعات الإسلامية يبطلون الاستدلال بالسيرة النبوية وبما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو تشابهت الحالة ضعفاً ومكناً، بناء على أن ما فعل في السيرة حال الاستضعاف كان لما كانت الشريعة لم تكتمل أما وقد اكتملت شريعة الله تعالى فلا يجوز ذلك بحال.

بل إن منهم من يبطل كل العمل السياسي بآية السيف، وهذا خطأ بين لأننا لا نقول بان التزام الجماعات الإسلامية بمراحل السيرة النبوية وإسقاط مراحلها على عمل الجماعة هي مسألة وقفية. وإنما نقول أن ارتباط التكليف بالقدرة حكم ثابت لا يلغيه اكتمال الشريعة بل هو من كمال الشريعة وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في السيرة من الترخص وترك العزيمة هو من هذا الباب

وكثير من الأحاديث الصحيحة التي تبدأ (لولا أن أشق على أمتي) وجدنا من يحمل الأمة على العزيمة في زمن الاستضعاف بطريقة التلبيس في توصيف الحالة عن طريق ضخ ثقافة معينة لا تتحملها الساحة بل تتطلب غيرها تماماً كمن يُدْرِسُونَ أحكام جهاد الطلب في ساحة الجهاد فيها جهاد الدفع لسبب وحيد أنهم لا يعرفون الجهاد إلا فرعاً عن التكفير

كثير من الجماعات الإسلامية تعرض عن الرخصة إلى العزيمة لا لقناعتها وليس ورعاً وإنما بسبب دخول ماراتون من المزايدات مع الجماعات الأخرى التي تنتظر منها هكذا خطوة لتقلب مزاج الإتياع على قادتها وكسب أتباع جديد من خلا المتاجرة وتصوير الرخصة

بالخيانة وكذلك التزي بأردية الزور والتشبع بالمفقود لدغدغة عواطف الأتباع الذين يطربون لهذا النوع من الخطابات والشعارات فقد عرفنا كثير من القادة أعرضوا عن إصلاحات وأمر رشدي خوفاً من خسارة الإلتباع السفهاء الذين قد يفسرون الرخصة طعناً في الدين وخيانة لله ورسوله حتى غدت خشية القادة من الأتباع أكثر من خشية الأتباع للقادة، فتعيش حالة من الحجر على التصرفات والقرارات الشرعية في مؤداها من خلال إحاطتها بمجالس شورية صورية ليس مهمتها تقديم الشورى بقدر ما تكون مهمتها ممارسة الحجر على القيادة، والسبب نوع التغذية التربوية التي نما عليها هؤلاء ضمن القوالب الجامدة والتي يبوء بإثمها موجهون أساؤوا التربية بالثقيف الأحادي الذي يراعي الحالة العسكرية الجهادية فلما وصلوا إلى مرحلة القطاف السياسي للجهد العسكري وجدوا القاعدة غير مهيأة للانتقال إلى الجهاد السياسي بسبب فقد التوازن في التوجيه والإعداد، وهذا بسبب ضعف التدبر للسيرة النبوية نجد في الحديبية الأيادي التي امتدت لصلح الحديبية كاستحقاق سياسي، هي نفس الأيادي التي امتدت لبيعة الموت تحت الشجرة قبلها، فالتربية الجهادية والسياسية تسير سواء بسواء.

لقد كان تغيير القبلة أمر عظيم على قلوب أصحاب رسول الله وكانت الحكمة ليعلم الله من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ولكن لما كانت التربية الإيمانية لأصحاب رسول الله راسخة وثقتهم بدينهم ورسولهم كان التسليم المطلق حتى أنهم غيروا اتجاههم بعد ركعتين من صلاة رباعية أثناء الصلاة وسمي المسجد مسجد القبلتين

هذا لما كانت الجماعة على حال واحد من الإيمان والتسليم ولكن بعد الفتح مجرد تصحيح القبلة لم تقدم عليه القيادة النبوية لعدم الثقة بمسلمة الفتح حديثوا العهد بالجاهلية

مراعاة تراثيَّة البناء

الاجتهادات متعدّدة في فكر الجماعات الإسلاميّة في هذا الشأن

الشيخ الألباني رحمه الله نادى بالتصفية والتربية وقال: سيأتي يوم ندخل فيه معترك السياسة، أمّا الآن فمن السياسة تزك السياسة أمّا الإخوان المسلمون فقالوا إنّ مراحل الدعوة الثلاث التي حددها الإمام حسن البنا - رحمه الله - وهي التعريف والتكوين والتنفيذ. أمّا السلفية الجهادية أيضاً قامت على ثلاثية الهجرة ثم التربية ثم الجهاد.

أمّا حزب التحرير فهو مغرق في التنظير وحمل بضاعته لأهل الشوكة والتمكين من أجل تحويل مشروعه من النظرية إلى التطبيق، ولكن ليس له رؤية للوصول إلى التمكين إلا من خلال طلب النصرة.

إذاً من خلال الاستقراء نجد الإجماع منعقدًا عند كلّ الجماعات الإسلاميّة على أن يكون البدء ببلورة المشروع قبل عرضه وتنظيم المؤيدين له والسير بهم نحو تحقيق أهدافه.

هذه هي المراحل التي نجدها عند مجموع الجماعات الإسلاميّة

1. التأسيس
2. التصفية
3. التربية
4. التكوين
5. التنفيذ

- 1- التأسيس يجب أن يكون لمنهج الاصطفاف السنيّ وليس للتحزّب والمناهج الحزبيّة القاصرة.
- 2- التصفية لكلّ أسباب النزاع بين الجماعات السنيّة الإسلاميّة وترسيخ مفهوم الأمة بدلاً من مفهوم الطائفة والجماعة.
- 3- التربية على منهج وخطاب يستوعب الأمة ويخرج من الدائرة الحزبيّة ويتصف بالشمول.
- 4- في هذه المرحلة يجب أن يبتعد أهل السنة عن تكوين التنظيمات الممنهجة ويحلّوا التنظيمات الموجودة ويتجهوا إلى التنظيمات الورشية على أساس من الاختصاصات الكفائية أشبه ما

تكون بالمنظمات المهنية، والاتجاه للإنتاج المادي ووسائل الانعتاق والتحرر قبل حسم الخلافات المنهجية.

5- التنفيذ: تقوم هذه الورشُ بإنجاز ما تحتاجه الأمة من خدمات وتقديم هذه الخدمات للجميع، وتركز على جانب الإعداد والإنتاج المادي، مما يُقوّي قابلية الأمة للمقاومة والمواجهة بدون أن تَمُدَّ يَدَهَا ويُصادر قرارها السياسي، وحتى تمتلك قرارها السياسي عليها أن تستقل بالكفاية الاقتصادية، وتكون هذه الخدمات بعيدة عن الدعاية الحزبية والمآرب السياسية النفعية وتقدم للأمة بدون قيد أو شروط مسبقة أو تمييز.

هناك من الحركات ما زالت في دائرة التأصيل لمشروع الخلافة لم تخرج منه، واقتصار خروجها للبحث عن نصير لمشروعهم! السلفية العلمية لم تخرج من التصفية للبدع والتربية على الهدى الظاهر، ولا زالت تراوح بينهما!

الصوفية وجماعة التبليغ اتجهت إلى التربية والتزكية متجاوزةً للتأصيل وتصفية المنهج من الدخن فرّبت أتباعها على مناهج تشرّبت بالدخن!

الحركات الإسلامية التي خاضت غمار السياسة توجهت نحو التجميع بدون تربية، فكوّنت حاضنة شعبية نفعيّة سرعان ما تنقلب ضدها!

الحركات الجهادية انطلقت إلى التنفيذ وممارسة صلاحية ولي الأمر على مجتمع لم يتل حظه من التربية والدعوة، فدخلت بصراع دايِم مع المجتمع الحاضر.

قامت فكرة السلفية الجهادية على معطيات صحيحة في تشخيص الأعداء ومفاصل قوتها وعلى خطأ فادح في أسلوب المواجهة كانت الفكرة تتلخص أن الغرب المركز يتحكم بمفاصل القوة والسيطرة على العالم التي تتشكل من ثالوث

1- القدرة العسكرية

2- القدرة الاقتصادية

3- الشرعية الدولية

وكانت الفكرة في ضرب هذه المفاصل من خلال تدمير القوة العسكرية بالجهاد

واستنزاف القدرة الاقتصادية في حروب طويلة الأمد نظرا لرخص وسائلها في الصراع وارتفاع أثمان التكلفة العسكرية للغرب وكانت مواجهة الشرعية الدولية كأداة سيطرة للولايات المتحدة في إدارة العالم برفع ما يسمى توحيد الحاكمية المستمد في أدبياته من سيد قطب وأبو الأعلى المودودي رحمهما الله

أول أخطاء هذه الإستراتيجية إن القاعدة انصرفت إلى ضرب مفاصل قوة الغرب دون أن تسعى لامتلاك القوة الرادعة مما يوازئها بالإعداد فانشغلت بهدم الغرب أكثر من انشغالها ببناء نفسها فتضخم الجهاد لديها على جانب الإعداد الذي اقتصر على التغذية الفكرية والعقدية المتمحورة حول العقيدة والجهاد (منبر التوحيد والجهاد مثال)

ثانيا - كان الاستنزاف الاقتصادي للغرب عبارة عن أثر ضعيف جدا لان تكلفة الحرب لدى الغرب كانت تتوزع على دول عديدة من المنتجين للنفط (من أموال المسلمين) خاصة من كانوا يسددون فاتورة الحروب الأمريكية على الإرهاب ثم أن الاقتصاد الأمريكي قوته من الدولار ذي القوة الذاتية ليس له أي رصيد من الذهب فلا يكلفهم أكثر من الطابعة والحبر والورق عملة مدعومة برصيد القوة وليس برصيد القيمة

ثالثا- قضية الغلو في الحاكمية جعلت من السلفية الجهادية حاضنة للفكر الخارجي الذي انتهى بانقسامها واقتتالها البيني وقبل ذلك وضعها في مواجهة الأنظمة العربية وقطاع واسع من أبناء الأمة بدلا من الغرب لمسألة تتعلق بفقه الجهاد وإشكال عقدي بعد الحكم على الأنظمة بالردة مما جعل مواجهة هذه

الأنظمة أولوية تتقدم على مواجهة الغرب الكافر الأصلي و بذلك تكون قد اتجهت إلى ذنب الأفعى بدلا من رأسها.

حركة التجديد والانبعث

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- " **نَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ مَن يَجِدُّ لَهَا دِينَهَا** ". الناظر إلى موضع هذا الحديث في أبواب السنن - وخصوصاً في سنن أبي داوود - نجد أن الإمام أبي داوود - صدره في أول باب من كتاب الملاحم، فقال: "كتاب الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة. حدثنا سليمان بن داوود المهري" فذكر الحديث.

والملاحم جمع مَلْحَمَة، ويراد بها المعارك والأحداث الجسام التي تقع في المستقبل بين المسلمين وأعدائهم، مأخوذة من التّحام الجيشين المتحاربين، لذا يذكر أئمة الحديث في هذا الباب الأحاديث النبوية الواردة في قتال المسلمين للثُّرك والرومان واليهود وغيرهم، ونسأل هنا: لماذا كتب أبو داود هذا الحديث في هذا الباب؟ نقول: إنّ هذا من فقه أئمة الحديث وبراعتهم في التصانيف. وذكّرُ أبي داوود لهذا الحديث في هذا الموضع في لطائف نراها، ومنها:

1- أنّ المُجِدِّد ليس بعيداً عن الأحداث الجسام التي تتعرض لها الأمة ، وعن الحروب المعلنة على الإسلام، فليس مكان المُجِدِّد في الأبراج العالية بعيداً عن الأحداث التي تعصف بالمسلمين، كما أنّه ليس بعيداً عن ذروة السنام: الجهاد، وليس المُجِدِّد بالذي لا يضع يده في يد المسلمين في جهادهم ضد أعداء الإسلام.

2- أنّ من معاني تجديد الدين انتصار الدين في تلك الملاحم والحروب التي قامت وستقوم لمحاولة هدم الدين. وكان الإمام أبي داوود بتقديمه هذا الحديث على كل أحاديث الملاحم، يريد أنّ يؤكّد السنن الربّانيّة القائلة بانتصار الدين الإسلاميّ في نهاية

تلك الحروب. فأورد حديثَ التجديد الذي يُبشّر بالمكانة والريادة للأمة المسلمين.

3- أنّ الملاحم والحروب التي أخبر عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم - تهدف بالأساس إلى القضاء على هذا الدين، أو تشويهه. فمن ثم يأتي دور المُجَدِّدين للدفاع عن هذا الدين، وعن ثوابته، ويُخَيِّون ما اندرس منه من المعالم بفعل أعداء الإسلام وحروبهم.

4- أنّ عملية تجديد الدين عملية جهاديّة من الدرجة الأولى، وهي تغيظ أعداء الإسلام، لما يقوم به المُجَدِّدون من إحياء الفرائض الغائبة والسُّنن المُغَيَّبَة ومَحَقِّ البدع والخرافات الدّخيلة، لاسيما تلك الأفكار الخبيثة التي دسها أعداء الإسلام في عقول العرب وسلوكياتهم وأخلاقهم. لذا كان الإمام أبو داود فقهياً حقاً عندما كتب هذا الحديث في باب يتحدث عن الجهاد ضد رايات الكفر اليهودية والصليبية.

5- حاجة الأمة الإسلاميّة إلى المُجَدِّدين تكون أشدّ وأعظم في زمان الفتن والملاحم، لاسيما تلك الحروب المعلنة على الإسلام، إذ وظيفة المُجَدِّد هو النهضة بهذه الأمة، والخروج بالأمة من عثراتها. سالمة غانمة منتصرة.

في هدف الحديث:

"يهدف هذا الحديث إلى بعث الأمل في نفوس الأمة. فهو يريد أن يرسل رسالة إلى أتباع هذه الدنيا مفادها أن هذا الدين لن يموت، وأنّ الله يُقَيِّضُ لهذه الأمة كلّ فترة زمنية من يُجَدِّد فهمها وأفكارها نحو هذا الدين، وأنّ الله - عزّ وجلّ - لن يدع هذه الأمة تتيه بعد وفاة رسولها - صلى الله عليه وسلم -، فقد قرّر - عزّ وجلّ - أن يرسل لهذه الأمة من يوقظها من سبات، ويجمعها من شتات، وينصرها من هزيمة، ويحرّرها من طغيان. وبالتالي فإن هذا الحديث الجليل يقف ضد موجة اليأس والانهازم والقنوط، التي يبثها المثبّطون والمعوّقون، الذين يوحون إلى الناس بأن الإسلام في إديار والكفر في إقبال وأنّه لا فائدة ولا أمل في التمكين للمسلمين في الأرض، كما مكّن الله

الرعيّل الأول من أتباع محمد _ صلى الله عليه وسلم_ . ومن ثم تأتي وظيفة هذا الحديث وأمثاله _ من المُبشّرات_ بقذف قمم اليأس التي خيمت على النفوس، وحرقت أشجار القنوط الخبيثة. (يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَبْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) [يوسف: 87].
والحق أنّ في السنة النبوية الكثير والكثير من الأحاديث المبشرة بنصر الإسلام والتمكين له، وكلها أحاديث تتكاتف مع حديث المُجَدِّد من حيث وحدة الهدف، في كون هذه الأمة منصورّة، مُمَكَّنًا لها، ومن أمثلة تلك الأحاديث الكريمة: قول الرسول _ صلى الله عليه وسلم_:

1- "بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ: بالتيسير، والسناء، والرفعة بالدين، والتمكين في البلاد، والنصر. فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة من نصيب"

2- "مَثَلُ أُمَّتِي، مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يَدْرِي أَوَّلُهُ أَحْيَرُ أَمْ آخِرُهُ."

3- "لِيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرَ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بَعْرًا عَزِيزًا أَوْ ذَلِيلًا ذَلِيلًا، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ"

4- "تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ سَمِعَ مِنْكُمْ"

5- "تَكُونُ النَّبُوءَةُ فِيكُمْ _ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ _، ثُمَّ يَرْفَعُهَا اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةُ عَلَيٍّ مِنْهَا النَّبُوءَةُ _ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ _، ثُمَّ يَرْفَعُهَا اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَارِضًا، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةُ عَلَيٍّ مِنْهَا نَبُوءَةٌ" ثُمَّ سَكَتَ.

6- "إِنَّ اللَّهَ زَوْي لِي الْأَرْضِ! فَرَأَيْتَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا".

وبالجملة فإن هذه الأحاديث لاسيما هذا الحديث العظيم (أي حديث المُجَدِّد) من البشائر التي وعد بها النبي _ صلى الله عليه وسلم_ وإنّ هذا الحديث العظيم ليمنح المسلم طاقة من الأمل



الأکید بنصر الله لعباده المؤمنين، ويمنحه _فوق هذا_ دفعة قوية محرّكة للعمل والبذل والجهاد والتضحية رجاء أن يَكْتُوبَ له المولى _تبارك وتعالى_ ثواب المُجَدِّدين.

في لطائف الحديث:

1- أول ما يَستوقف المتأمل في هذا الحديث الكريم؛ هو قول النبي _صلى الله عليه وسلم_: "يبعث الله!" وهو بذلك يقذف في قلب المستمع من أول وهلة سيلاً من الثقة والإيمان يثي بعناية ورعاية المولى _تبارك وتعالى_ للمُجَدِّد، وكلمة البعث هنا توحى بأنّ الله تعالى يرسل لهذه الأمّة من يصطفيه ويجتبيه من عباده ليحمل أمانة التجديد وتبعية النهضة ومسؤولية الإحياء، وكأنّ المُجَدِّدين هم رسل الله بعد الأنبياء غير أنّه لا نبي بعد محمد _صلى الله عليه وسلم_!

2- وانظر إلى قوله: "لهذه الأمّة"، نعم، قوله: "لهذه الأمّة"، فالتجديد الإسلاميّ يهدف بالأساس مصلحة هذه الأمّة جمعاء، وكل مصالحها السياسية والاقتصاديّة والفكرية والتربوية، الخ، كما أنّ المُجَدِّد ليس بالذي يعيش لنفسه، أو يعيش معزولاً عن الأمّة، حبيسَ الكتب والمكتبات، إنّّه بذلك يعيش من أجل نفسه بل من أجل شهواته، يعيش من أجل أن يُشبع بطنه بحبر قلمه! ولكنّ المُجَدِّد الحقيقيّ هو الذي يعيش بكل كيانه لهذه الأمّة، ولأبناء هذه الأمّة مهما كان مكانهم ومهما كان حالهم ومهما كانت أرضهم، "إنّنا نعيش لأنفسنا حياة مضاعفة، حينما نعيش للآخرين".

3- ثم قال: "على رأس كل مائة سنة"، ومعروف أن رأس الشيء أعلاه، ورأس الشهر أوله، ورأس المال أصله، هنا يتساءل الشراح عن بداية المائة، فقال المناوي: "يحتمل من المولد النبوي، أو من البعثة، أو من الهجرة، أو الوفاة، ولو قيل بأقربية الثاني (أي البعثة) لم يبعد، لكن صنيع السبكي وغيره مصرح بأن المراد الثالث" (أي الهجرة).

وذلك لأنهم في حديثهم عن المُجَدِّدين اعتبروا التاريخ الهجري هو الأساس، وهو معقول، لأنَّه التاريخ الذي ألهم الله المسلمين منذ عهد عمر أن يؤرِّخوا به دون غيره، فلم يعتمدوا المولد ولا البعثة ولا الوفاة. هذا وقد قال بعضهم في قول النبي _ صلى الله عليه وسلم: "على رأس كل مائة سنة"، يعني في أولها، وقال آخرون بل في آخرها، كما يلاحظ أن أكثرهم جعلوا العبرة بوفاة المُجَدِّد في رأس القرن، كما يظهر ذلك في وفيات الذين عينوهم: فعمر بن عبد العزيز توفي _ رحمه الله _ في سنة 101هـ، والشافعي توفي _ رحمه الله _ في سنة 204هـ، وابن سريج (ت306هـ)، والباقلاني (ت403هـ)، والغزالي (ت505هـ)، والرازي (ت606هـ)، وابن دقيق العيد (ت703)، والعراق (ت808هـ)(12). لكنهم لم يذكروا إماماً مثل ابن تيمية برغم حركته التجديدية الضخمة في الفكر الإسلاميِّ بمختلف جوانبه، لأنَّه تأخرت وفاته عن رأس المائة (ت728هـ).

فالحق أنَّ النبيَّ _ صلى الله عليه وسلم _ لم يُقل: إنَّ الله يتوفى المُجَدِّد على رأس القرن، بل يبعثه على رأس القرن. ومعناه: أنَّ مهمة المُجَدِّد تبدأ في رأس القرن، كما أنَّ مُهمَّة كلِّ نبيِّ تبدأ من أوَّل يوم بعث فيه. ولقد فطن إلى هذه الحقيقة المناوي _ رحمه الله _ فقال: وهنا تنبيه ينبغي التفطُّن له، وهو أنَّ كل من تكلم على حديث "إنَّ الله يبعث" إلخ، إنَّما يقرِّره بناءً على أنَّ المبعوث على رأس القرن يكون موته على رأسه. وأنت خبير بأنَّ المتبادر من الحديث إنَّما هو: أن البعث _ وهو إرسال _ يكون على رأس القرن، أيَّ أوله. ومعنى إرسال العالم: تأهُّله للتصدي لنفع الأنام، وانتصابه لنشر الأحكام. وموته على رأس القرن أخذٌ لا بعث! فَتَدَبَّرْ بِإِنصاف. ثم رأيت الطيبي قال: المراد بالبعث من انقضت المائة وهو حي عالم مشهور مشار إليه. والكرماني قال: قد كان قبيل كل مئة أيضاً من يصحح ويقوم بأمر الدين، وإنَّما المراد من انقضت المائة وهو حي عالم مشار إليه). ثم ذكر المناوي: "أنَّه قد يكون في أثناء المائة من هو كذلك، بل قد

يكون أفضل من المبعوث على الرأس وأنّ تخصيص الرأس إنّما هو لكونه مَظَنَّة انخرام علمائه غالباً وظهور البدع ونجوم الدجالين". وهو بذلك يؤكد حقيقة أن المُجَدِّد لا يُشترط فيه أن يُبعث أو يظهر أو يموت على رأس المائة، وهذا يصدقه التاريخ والواقع. وهو الراجح والله أعلم. كما أنّ الظاهر والله أعلم أنّ عدم تحديد المقصود بالرأس، وعدم تحديد المبتدأ، يشي بأنّ الله تعالى يبعث المُجَدِّدين كلما دعت الحاجة إليهم، لاسيما في أزمنة التّكبات والفتن والملاحم. ومن ثم يظهر المُجَدِّدون في أي يوم من أيام السنة، وفي أيّ سنة من سنوات القرن! وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء .

4- أمّا قوله صلى الله عليه وسلم: "من يُجَدِّد لها دينها". فهذا يدلّ أن الدين المُجَدِّد هو ذلك الذي يعتقده الناس، لا الدين الخالص الذي أنزله الله، ولذلك قال: "يُجَدِّد لها دينها" فنسب الدين إلى الأمّة، ولم يقل مثلاً: يجدد لها الدين أو يجدد لها دين الله فهذا المُجَدِّد هو تجديد الدين الذي يتصوره ويعتقده الناس بحيث يتفق والدين الخالص الذي أنزله الله غصاً طرياً على نبيه صلى الله عليه وسلم.

أما بشأن كلمة "من" في الحديث، والسؤال التقليدي: هل من هنا للفرد أم للجماعة؟ فأعتقد أن "من" تنطبق على الفرد كما تنطبق على الجماعة، فقد يكون القائم بالتجديد فرد، وقد يكون جماعة أو حركة أو مدرسة. فقد يبعث الله تعالى رجلاً يجدد في الفقه السياسي أو الاقتصاد الإسلاميّ، كما قد يبعث حركة إسلاميّة تجدد في المجال التربوي، أو مدرسة تجديدية تنقي السنة، أو تجدد في فهم كتاب الله تعالى، أو تحمل راية الجهاد. وفي هذا القرن الذي نعيشه نحتاج إلى حركة تجديدية شاملة مُتكاملة مستنيرة، تنهض بهذه الأمّة من عثرتها، وترفعها من كَبَوْتِهَا.

الموقفُ الشّرْطيّ المناسب للظرف التاريخي الحاضر

خير الجماعات من اجتمعوا على الفكرة، وشرها من اجتمعوا على الشهوة والدنيا والمصالح، وبينهما من اجتمعوا على العصبية لعشيرة أو شخص في عصر الخلافة النبوة والخلافة الراشدة كان اجتماع الأمة على الفكرة والعقيدة، وفي عصر الملك العضوض قام العقد السياسي على العصبية فكانت تسمى الدولة باسم العشيرة، وفي عصر الحكم الجبري قام العقد السياسي للأمة على الشهوة والغريزة والمصالح أطوار العقد الاجتماعيّ

لا يمكن لأيّ عملية تعصيب اجتماعي على عقد جامع إلا بعد دراسة فسيفساء أفكار ورغبات وعصبيات هذا المجتمع ومساحة هذه الأطوار على رقعته. يقسم الأستاذ مالك بن نبي الأطوار الحضارية إلى ثلاثة أطوار:

1- **طَوْر الروح** (والإيمان حيث تتميز الأفكار وتجتمع الأمة حول فكرة جامعة تقوى بقوة الارتباط بها وتضعف بضعف الارتباط بها، وهذا ما كان عليه الحال منذ بعثة النبي صلى الله إلى موقعة صِفِّين التي شكّلت أول حالة من الاصطدام بين أبناء الأمة، و كانت الخلافة من قبل ترتبط بتقديم من يحمل الدين، وكان الاختيار يتم لمن هو الأكثر ارتباطا بالفكرة الإسلامية ولم تسمى الدولة باسم حاكمها فلم نسمع من قال الدولة البكرية أو الدولة العمرية وإن كانت تظهر بعض العصبيات العابرة لكنها لم تُكُنْ تعبّر عن السّمة العامّة للأمة ثم لتدخل الأمة في الطور الثاني).

2- **طور العقل** (في طور العقل تتراجع الأفكار قليلاً ويتقدم الإنسان، وهنا دخلت الأمة في حقبة الملك العضوض الذي لا يمكن أن يقوم إلا على العصبية، وظاهرة اليمانية والقيسية إبان الحكم الأموي هي أحد مُفرزاتها حيث صار اسم الدولة مرتبطاً باسم العائلة التي تحكم، هنا لا بُدّ للعصبية من استعمال مفرط للقوة لتصفية المعارضين واستعمال العصبية القبليّة في ضرب

المعارضة وهذا الأمر لا يمكن إلا بسفك الدماء وتصفية الخصوم لأن الفكرة الجامعة للأمة ضامرة).

في مرحلة العصبية لا يمكن أن تجتمع الأمة إلا بتشكيل هذه العصبية والهيمنة على العصبية الأخرى، وقد راعى الإسلام هذه الناحية فجعل الإمامة في قريش الأمر الذي فسره ابن خلدون أنه لِعِلَّة العصبية لأنّ العرب لا يمكن أن تجتمع إلا على قريش.

3- **طور الغرائز**، في هذا الطور تزداد الفكرة ضموراً وينفرط عقد العصبية لتتفوق الأشياء (عالم المحسوسات) من المتاع كما هو الحال في مرحلة الملك الجبري الملك الجبري. المُلْك الجَبْرِيُّ يقوم بتوطيد المُلْك على أساس تجميع المنتفعين وأصحاب المصالح، حتى النظام النصيري لم يكن طائفيًا 100% بل إنّه استطاع تجميع أصحاب المصالح ومن كل الطوائف، ولم تكن العصبية للطائفة وإيجاد فكرة البعث إلا لتنظيم المصالح والتدرّج بها، حتى إنّ الرفاق عندما تعارضت مقتضيات الحكم مع وجود البعض قاموا بقتل رفاق النضال.

بالعودة على بدء لا ننفي أنّ العصبية والغرائز لم تكن موجودة في الطور الأول، من ميلاد الأمة كانت موجودةً وأحياناً تطفو إلى السطح بشدة، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يروضها بما يتناسب مع تدعيم الفكرة وتقويتها فمن مراعاته للعصبية كان كل رجل يقاتل تحت راية قومه ولكن الراية الجامعة هي لإعلاء كلمة الله وليس لإعلاء كلمة العشيرة، وكان يكرم كل كريم قوم ويؤمّره عليهم.

حتى قضية الغرائز والشهوات كان هناك مصرف من مصارف الزكاة للمؤلفة قلوبهم، وقد أثر النبي صلى الله عليه وسلم مسلمة الفتح وحرّم الأنصار من غنائم حُنين، ولكن لم تكن هذه العناصر لتصل إلى الدائرة الصلبة من الأمة، ولكنه ضمّن بذلك ولاءها وحيّد عداها، ذلك أنّ من الناس من لا ينقاد إلا ببطنه وشهوته ومنهم من ينقاد بعقله وقلبه.

النتيجة:

من العيب بمكان أن ندعوا أمة مُغرقةً في الشهوات أن تتوحد بالاجتماع على الفكرة أو العصبية. والساحة السورية الآن تنتشر فيها المظاهر الثلاثة خصوصاً في مرحلة صراعات الأفكار والعصبيات والغرائز التي تموج بها الساحة، ولكي تتم الولادة السليمة لعقد اجتماعي تعبر فيه البلد للمرحلة القادمة لا بُدّ من دراسة هذه الأطوار الثلاثة وتحديد سببٍ توظيفها بتحديد نسبتها وتأثيرها وإمكانية احتوائها وصهرها في المشهد القادم لأنّ الملاحظ أنّ هناك تنظيمات عصبية في الساحة وهناك تنظيمات مُأدّجة، وهناك تنظيمات مصلحية. وعليه يجب أن نختار أحد الطريقتين في توحيد هذه المتباينات.

الطريقة الكيميائية في مزجها والخروج بمكافئ جديد أو التوظيف الفيزيائي في الجسم الآلي. السقوط الحضاري لا يكون فجائياً وشاقولياً، وإنّما يأخذ شكل منحنى قد تطول مسافته، فبعد حوالي مئة سنة من فتح المسلمين للأندلس بدأ خط الانحدار بعد معركة بلاط الشهداء حيث لم يتقدم الفتح الإسلامي خطوة واحدة وبدأ الانحسار تدريجياً، وما يقال عن السقوط نقوله عن النهوض الذي يأخذ أيضاً شكلاً متدرجاً ثم يتسارع إلى الأعلى ليصل إلى الذروة لتكتمل الدورة الحضارية للأمة.

• من ملامح الحلول:

تشكيل العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفريعية.

عدم الاكتراث ببناء العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفريعية، تسبب في تفتيت الوحدة

الثقافية للعاملين في الحركة الإسلامية فهم عرضة للاختصاص أمام أتفه اختلاف فرعي. وهنا لا بُدّ من وضع أصول تميّز بها أهل السنة عن غيرها دون الفرز على أساس الخلاف في الفروع. فالسنة هم الأمة من الإجحاف النظر إليهم على أنهم طائفة الاجتماع على الأصول الكلية لأهل السنة والجماعة لأجل امتلاك الهوية:

اشتراط الموافقة في كل الفروع والمسائل الاجتهادية والظنيّة لكي نحسب مدرسة أو شخصية علمية على أهل السنة ستؤدي إلى جعل أهل السنة حالة افتراضية غير موجودة إلا في أذهان المُتَنَطِّعين قياساً على تصوراتهم الخاصة. الالتزام بالخطوط العريضة للإسلام وأركانه وشعائره يُسهّل تحديد الهوية للأمة دون الدخول في زوارب المناهج الحزبيّة التي تُضيّق معنى الهوية فلا تكاد تشمل أكثر من المنتسبين للحزب والجماعة لأنّها تشترط شروط قياسية محدّدة بأصول الجماعة ومناهجها ولا تكفي بالأصول العامّة للدين الحنيف. من مشاكل المثقفين في بحثهم عن الوسطية أنهم يبحثون عنها بين مواقف الجماعات، لذلك لا يجدونها أبداً. يعني هم يبحثون عن وسطية سياسية وليس وسطية شرعية التي يبحث عنها بين النصوص في الفهم الوسطي الذي ينأى عن الغلو والتفريط.

وسطية أهل السنة والجماعة:

وأهل السنة والجماعة وسط في نصوص الوعد والوعيد، فالمرجئة يأخذون بنصوص الوعد ويتركون نصوص الوعيد، ويقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، أمّا الخوارج والمعتزلة فهم على النقيض من المرجئة، أخذوا بنصوص الوعيد وتركوا نصوص الوعد.

أمّا أهل السنة فيرون أنّ نصوص الوعد لا يُخلفها الله تعالى، أمّا نصوص الوعيد فقد يخلفها للعفو والرحمة.

وأهل السنة وسط، بين الظاهرية الذين يقفون على ظواهر النصوص ويُبطلون مسلك التعليل، وبين الباطنية الذين يلوون أعناق النصوص ويغرقون بالمجازات الباطلة والتفاسير الإشارية وصولاً إلى الزندقة.

وأهل السنة وسط، بين المعطلة (الجهمية وبين النواصب الذين جعلوا من بغض آل البيت ديناً) الذين ينفون الصفات لله تعالى فيعبدون عدماً،

وبين المُجسمة (الحشوية) الذين يشبهون صفات الخالق بالمخلوق فيعبدون صنماً.

وأهل السنة وسط، بين القدرية الذين يقولون أن الإنسان خالق أفعال نفسه،

وبين الجبرية الذين يقولون الأمر أُنْف.

أهل السنة وسط في مسألة الإيمان والعمل، بين الخوارج الذين قالوا لا ينفع مع المعصية إيمان وبين المرجئة الذين قالوا لا يضر مع الإيمان ذنب

أهل السنة وسط، بين الروافض الذين جعلوا من بُغض الصحابة ديناً

وبين النواصب الذين جعلوا من بُغض آل البيت ديناً

دعوة إلى الاصطفاف السني

لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أمام بصر العقلاء وأولي الألباب أن الأحزاب أعجز وأضعف من أن تستطيع حمل مشاريع الأمة وأعجز من أن تستوعب الأمة في كياناتها.

الأحزاب المتدنية في سقوفها المتحجرة في مناهجها النخبوية في تنظيمها الإقصائية مع الجماعات الأخرى من إخوانها من أهل السنة.

الجماعات كلها روافد صغيرة يتشكل منها نهر الإسلام العظيم، وإنّ استثناء آية جماعة يؤدّي إلى إضعاف لقوة التيار في ذلك النهر.

- يضيق مفهوم أهل السنة عند البعض فلا يكاد يتسع إلا لجماعته وأهل مشربه، طبعاً مفهوم الأمة الذي نعنيه ليس هو المفهوم الشائع عند المُنهجين والمتحزبين الذين يخضعون الأمر لشروط قياسية لا تنطبق الأعلى جماعتهم.

البعض اليوم يرفع راية الجهاد النخبويّ الذي لا يستوعب إلا من يُسمّون أنفسهم إخوة المنهج ضمن شروط قياسية وانتقائية مُتمخّصة.

- هناك دعوة اليوم لصبغ جهاد الأمة ليكون سلفي الراية، وأن تكون قيادته سلفية التركيب، وأحكامه سلفية المنهج، وأن يكون كل شيء بالدليل، ولو قبلنا أن يجاهد معنا من ليس سلفياً فمن باب الحاجة!

• ولكن ليس لهم أن يكون لهم من القيادة أو أن تنعقد لهم البيعة شيء وإثماً نقودهم لأداء فريضة الجهاد، طبعاً وليس كلّ السلفيات تصلح لذلك، ولا يزالون يُضيّقون حتى يقتصر الأمر على فئة بعينها ومرجعية بعينها وراية بعينها! ضرب من الانتحار التي تُقاد له الأمة في زمن الاصطفافات ليفرقوا بين المرء وأمته خصوصاً في جهاد الصائل، فنحن اليوم نواجه كفرةً بواحاً، فهل من المنطق أن نفتح معركة من أجل بدعة!

- لم يكن الجهاد في يوم من الأيام مقصوراً محصوراً في التيار السلفي، وقصّره سيحوّلُ قسماً كبيراً من الأمة إلى الجهة المتفرجة لأنّها ترفض الاصطباغ كشرط للجهاد، وربما تتحول إلى الطرف المعادي والرافض.

- الأمة جاهدت تحت قيادة ومنهج الصوفية (محمد الفاتح عمر المختار)

وجاهدت تحت راية الأشاعرة (صلاح الدين) (ابن قدامة المقدسي)



- وجاهدت تحت راية فاجر (الحجاج) (المهلب بن أبي صفرة)
وجاهدت تحت راية فاسق (يزيد بن معاوية)
- والنبي صلى الله عليه وسلم جاهد مع المنافقين وجاهد مع من
قالوا اجعل لنا ذات أنواط ولم تدخل المدارس الفقهية والكلامية
إلى ساحات الجهاد في عصر السلف لتتجاز كل فئة إلى راية تُدَلُّ
على انتمائها ومشربها.
- وقد جاهد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مع الصوفية
والأشاعرة لردّ عادية التتار في شقحب، وسماهم الطائفة
المنصورة.
- وقد حسم الأئمة هذه المسألة لكي لا تكون ذريعة لتعدد الرايات
والأحزاب، فَبَوَّبُوا باب الجهاد مع كل إمامٍ بَرّاً كان أم فاجراً، وهو
أصل من أصول أهل السنة والجماعة.
الحزبية اليوم صارت أمّ المنكرات المتولدة عنها ببناتها المعروفة
من الإقصاء والتمنّج وتزكية الفصيل والتغاضي عن الأخطاء
وحماية المحدثين والتشبع بثوب الزور.
بعد أن صارت الحزبية من أعظم المنكرات لن ينفع المتحزبين
تأصيلُ حَزْبِيَّتِهِم بالتواري والتخفي وراء قوله تعالى:
{ولتكن منكم أمة يدعوون إلى الخير}، كيف وبداية الآية تدعوا إلى
الاعتصام بحبل الله تعالى لا بحبل الجماعات وتذمّ الفرقة والحزبية
شأن الأمم الهالكة {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما
جاءهم البينات} وقد جاء الوعيد الشديد للحزبية بقوله تعالى
{وأولئك لهم عذاب عظيم}.
هي دعوة لمن يريدون أن يُخَيِّتُوا فريضة الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر، أنْ يبدأوا بأعظم منكر عرفته الأمة في هذا العصر ألا
وهو الحزبية.
الآن المرحلةُ مرحلة ما بعد الجماعات وهي الاصطفاف السنّي،
ومن خلال التجارب السّالفة كان الأولى أن نتعلم منها، ولكن كُزِّرَ
الخطأ في الشام، ولعل البعض يكابر وينتقد.

وهذا الوعي يفتقده الكثيرون لقلة تجاربهم وانحسار الأفكار بزاوية ضيقة، وأصبحنا كبني إسرائيل ضيقنا واسعاً وألزمنا أنفسنا بالزاماتٍ لم تفرض علينا، وهو من التكلّف المُجانب لليسر الذي جاء به محمد ﷺ وشرّعه ، وقد عاب الله على بني إسرائيل ذلك (ورهبانيّة ابتدعوها ما كتبناها عليهم).

من خلال تجربة الجزائر ثم تجربة العراق وتجربة الشام بآن أنّ دماء ومصير الشعوب المسلمة لا يجلّ أن يكون حقل تجارب فاشلة يعبت به الغلاة الجهلة .

من السفهاء الذين يقومون بخرق سفينة الأمّة ليصنعوا من حطامها قوارب صغيرة تتسع لأحزابهم عندما يقررون النجاة بها بعد أن تغرق سفينة الأمّة المخرقة
أرى بوادر تشكّل تيار فكري سنّي مجتمعي ينبذ الحزبيّة ويدعوا إلى الاصطفاف السنّي و يبدو أنّ ليل الأحزاب سيبتدّه نهار الأمّة، وعشاق العمل بالأجواء المظلمة سيُعزّريهم فجر الأمّة الباسم، فقد تنقل المُمتهجون في زوارب الفكر يمّنة ويسرة وبقيت الحالة الشعبية ثابتة البوصلة والاتجاه في وسطية مهتدية بصفاء الفطرة لم تُكدرها الشبهات وفوضى الأفكار.
لن يكون التيار الجديد دعوة تنظيمية ولا دعوة حزبية جديدة وإنّما هو دعوة لاصطفاف الأمّة كلّ الأمّة في ساحة واحدة لتحمل عبء الجهاد وردّ الصّائل.

الجهاد مع المنافقين

هل كان هناك مشاركة سياسية وجهادية بين المسلمين والمنافقين في دولة المدينة المنورة؟ هل كان من سياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم عزل المنافقين عن الجهاد والمجتمع أم دمّجهم؟

- لقد كانت المشاركة السياسية موجودة، وقد استشار رسول الله رأس النفاق ابن سلول في معركة أُحد، وكان حضورهم لغزوة الأحزاب ولم ينزع منهم السلاح بل أعطاهم سلاح بني

قينقاع. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن لي موالي من اليهود كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبي: "يا أبا الحباب! رأيت الذي نفست به من ولاء يهود على عبادة، فهو لك دونه" قال: إذن أقبل، فأنزل الله: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى} إلى أن بلغ {والله يعصمك من الناس} (5:67).

والعجيب أنّ الآية نزلت في المنافقين يستدل به على التكفير - وقد كان المنافقون يعقدون الاجتماعات السرية باليهود ويتآمرون على المسلمين، واتخذوا مسجد الضرار ليكون لهم مقرّاً ومرصداً للكفار وتفريقاً للصف.
- مع ذلك لم يسمح لهم رسول الله أن ينفردوا بمسجدهم فهدمه وكل ذلك يسعى رسول الله لدمجهم لا لعزلهم ولاستعمالهم في الجهاد، بل كان يدعوهم لذلك ولا يدعو لمحاربتهم واستئصالهم وهكذا مضت السُنّة في التعامل مع ظاهرة النفاق.

تجنب صراع النخبة

النخبة الإسلاميّة مبتلية بهوس الدفاع عن الأيديولوجيا التي تتبناها أكثر من دفاعها عن قضايا الأمة، وهمها دائماً هو الاستثمار السياسي في كل حدث أو مصيبة تقع على الأمة، لذلك تعتبر نخباً معتاشةً على الأزمات.

- الأزمات تشكل حقل استثمار ثري للنخبة لكي تُروّج إلى مناهجها وأفكارها وممارسة دور الوصاية على الأمة القاصرة.
- تحاول النخب أن تُروّج أنّ منهاجها هي الحلول الناجعة لأزمات الأمة، وأيّ حل لا ينطلق من أيديولوجيتها هو حلّ ساقط ومرفوض



ومحارب منهما، ويعتبرون أيّ حلّ لأزمة الأمة بعيداً عن مبادئهم هو سقوط لنظريّاتهم التي يعطونها حكم القطع والبعد العقدي.

- النخبة لا تهتم لطول أزمة الأمة وسرعة حلّها بقدر ما تهتمّ بنشر أفكارها وتحشيد الأتباع لها ولو على حساب صراع واحتراب داخليّ مع النخب الأخرى من التيارات الإسلاميّة المخالفة.

- في الوقت الذي تخوض فيه الأمة صراع الوجود والفناء والدفاع عن الضروريات وردّ الصّائل تخوض النخبة الإسلاميّة الصراع من خلال أيديولوجيتها الحزبية ولأجلها ليس من خلال واقع الأمة واحتياجاتها ، ومما يُدخلها بصراع تنافسي مع النخب الأخرى فيتحول الصراع بينهم لصراع سلطويّ يحاول كلّ منهم استدعاء الأمة لأيدولوجيته ومنهجه.

أمام تعدد التيارات النخبويّة وعدم اجتماعها وصراعها ستقوم كل نخبة بخطف قطاعٍ من الشعب المقهور بأزمته ليكون الوقود المستهلك لتمرير مشاريعها الحزبيّة ، ولن تجد غضاضة حتى في زجّه بصراعٍ داخليّ جانبي بعيداً عن الصراع الاستراتيجيّ الوجودي للأمة.

- هذا الحال في الغالب يدفع قطاع كبير من الأمة لتعود وترتمي بأحضان الطغاة وإجهاض ثورته بعد أدلجتها.

- وهذا ملاحظ بشكل مُطرّد في الثورات، إذ يرتفع خطها البياني عندما تكون شعبية موجهة من النخبة، وينحدر خطها البياني عندما تتحول إلى ثورة تتقاذفها الأدلجة والمناهج. النخبوية المفرطة تؤدي للتنظير المُميلّ في البروج العاجية، والشعبوية المفرطة تؤدي إلى الفوضى العارمة والغثائية.

والحل أن تكون النخبة موجهة ومرشدة ، وعدم إدخال الساحة في الاستقطاب والحزبيّة وما يجرّ لِحَرْفِ البوصلة وهذّر الطاقات في الصراعات الانتهازية.

ترسيخ مفهوم إقامة الشريعة بدلاً من مفهوم تطبيق الشريعة: المسلمون يمارسون حرب مفاهيم على دينهم وإسلامهم باختزال مفاهيم شاملة لتدلل على جزئيات صغيرة مثل:

أولاً: من المفاهيم الخاطئة مفهوم تطبيق الشريعة فلا يقال تطبيق الشريعة ، وإثماً يقال إقامة الشريعة لقوله تعالى {أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه}

التطبيق يأتي من نفسية تسلطية استبدادية وهي عبارة تختزل الشريعة بالحدود، أمّا الإقامة هي عملية بنائية تشبه إقامة البنيان بالأساسات إلى المراحل التي تمر لإنجاز البنيان من البناء الإيماني إلى البناء التربوي إلى البناء العلمي، ثم تحقيق الضروريات للمجتمع ثم حماية المجتمع يسوّر العقوبات من حدود وقصاص وتعزيزات.

النظام الإسلاميّ كلّ متكامل ،
يُطعم الجائع قبل أن يحدّ السارق، ويغفّ العازب قبل أن يحدّ الزاني.

إنّ اليد التي لا تجد لنفسها عملاً في الحلال لا بُدّ أن تمتدّ إلى الحرام.

النظام الإسلاميّ يعالج الجريمة من أسبابها وليس من مفرزاتها، الشرقة قد تكون من مفرزات الضياع الاجتماعيّ والفقر المدقع. الشريعة رحمةٌ كلها عدلٌ كلها مصلحةٌ كلها، فأيّ مسألة خرجت من العدل إلى الجور ومن المصلحة إلى المفسدة ومن الرحمة إلى الشدة ، فليست من الشريعة وإنّ أفضحت فيها بألف دليلٍ ودليل. قال تعالى (ولا تقربوا الزنا) ولم يقل لا تزنوا.

إفكار امرأة لا قيم لها في بيئة مفتونة دفعها إلى الفاحشة.
مَنْ انْحَرَفَ إِلَى الشَّهْوَةِ لَيْسَ كَمَنْ انْحَرَفَ إِلَى الشَّبْهَةِ.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن من جادت بنفسها بالحدّ (لقد تابت توبة لو وُزّعت على أهل المدينة لَكَفَّتْهُمْ).

وقال عن القتلى من المارقين (الخوارج) (شر قتلى تحت أديم السماء)

الحدود لا توجد للمجتمع الفاضل وإثماً تحميّه ، لذلك كانت التربية الإيمانية للمجتمع هو خطوة غير منفصلة عن إقامة الشريعة.

يقول أحدهم بعد عمل سنة كاملة في المحاكم الشرعية: ما وجدت
أحداً تحت الشرع من الفصائل.
الخضوع للشرع عند الفصائل يتناسب عكساً مع تعاضم الشعور
بالقوة وتُقْصانه.

{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى* أَنْ رَأَهُ اسْتَعْتَى} {العلق:6-7}
العقلية المتحرّبة ليست متمرّدة على الشرع، ولكنها تُثَقِّنُ الالتفاف
عليه، فأغلبها يحكم على الشرع وليس الشرع من يحكم عليه.
ملاحظ بشكل مطرد كلما تقدمت الجماعات الإسلامية بتطبيق
الشريعة في الفروع كلما ضُيِّعت مقاصد الشريعة الكلية، الأمر
الذي يدل أنّ ما يطبق هو الذريعة وليس الشريعة، وأنّ المطبقين
غارقين في الفروع غافلين عن المقاصد.
شَبْهَةٌ وَرَدُّ

- الإخوة الكرام في معرض الردّ على الغلاة عندما يرمون بشبهة أنّ
الدين اكتمل، فلا يجوز أن تستدل بفعلٍ لرسول الله صلى الله عليه
وسلم قبل اكتمال الدين كطوافه حول البيت مع وجود الأصنام؟
الردّ:

يجب أن نميِّز دائماً بين نوعين من الاكتمال
1- اكتمال الدين كشرائع وأحكام وفرائض وواجبات
2- واكتمال الظروف والمكّنة والاستطاعة لتطبيق هذه الشرائع
والأحكام.

فلا يلزم من اكتمال الشرائع اكتمال الاستطاعة على تطبيق هذه
الأحكام والشرائع، لذلك أناط الله تعالى هذه المسألة تحت شرط
الاستطاعة والقدرة، وتحديد هذا الأمر هو اجتهاد محض، قال
تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم).
وهناك من الأدلّة الكثيرة التي تربط التكليف بالقدرة والاستطاعة.
ومن هنا نرد على قضية التدرج في إقامة الشريعة:
التدرّج ليس مقصوداً لذاته ، والرأي الحق بين من ينفي التدرج
مطلقاً، وبين من يثبته مطلقاً.

إنّ التدرج مَنوط بالقدرة والاستطاعة، فكلما استطعنا من تطبيق حكم وجب الوصول إليه.

الإسلام ليس نظاماً سياسياً فحسب، وليس نظاماً اقتصادياً فحسب، وليس حركةً جهاديةً فحسب، وليس تربيةً روحيةً فحسب، وليس امتداداً جغرافياً وليس نظامَ عقوباتٍ فحسب، إنّهُ النظام الربّانيّ الذي يستوعب حاجات الإنسان والمجتمع، وهذا ما لم تستوعبه الأحزاب المجتمعة على جزئياته ثم تضخيمها إلى درجة التورّث المشوّه للصورة الكاملة.

الخاتمة والنتائج

نحن نتكلم عن أمّة إنّ اقتصرنا العمل على موقع وزاوية فإن الالتفاف علينا من السهل بمكان لإجهاض ما قمنا به، وهكذا سندور في حلقة مفرغة، وستجد الغرب انكبّوا علينا تحت أيّ

ذريعة لتقويض المشروع في طور إخراج الشطء قبل أن يصل إلى الاستغلاظ والاستواء على السواق.

نحن نخوض معارك نازفة لأجل إسقاط الدولة الظاهرة، والدولة العميقة متماسكة ومتغلغلة حتى في أحزابنا هذا يتطلب منا إدارة صراع خفي في مفاصل هذه الدول المستغربة التي تعمل كالغدد السرطانية.

نحن لا نتملق الغرب ونشهد ارتبাকে ومحاولته لنصرنة أوروبا حتى يتخلص من معضلة الحاضنة الغير قابلة لمشروعه، هذه نقطة ضعف لم نستغلها مع أن الأبواب كانت مُشترعة، والخواء الروحي كان فراغاً هائلاً للتحرك فيه وإشباعه بالدعوة في مساحة حرية الرأي والاعتقاد.

الأنظمة العربية ما هي إلا نواطير وراعية لمصالح الاستعمار، بل إنَّها زادت عليه بالبطش والعسف، المعركة معهم غير منفصلة عن الاستعمار ولكن استعداد الغرب وجره إلى المواجهة ليكون حليفاً مقاتلاً مع هذه الأنظمة يجب أن لا يكون من أولوياتنا الآن، لأن الغرب في النهاية جاهز للتخلي عن حلفائه إذا ما تحولوا إلى عبء ثقيل عليه.

الأحزاب رايات ، فمن دخل فيها بحكم الاضطرار ليس كمن صنع الراية ورفض الاصطفاف مع الأمة، الأمر يختلف بين الاثنين: نحن لا نتكلم عن إقامة كيان جزئي، فهذا سيتهشم بسهولة، نحن نتكلم عن تصدير مشروع إسلامي. القضية أكبر من أن نحتويها كما كنّا بالسابق عبر قيام دولة تحتضن الأمة لأنّ الالتفاف كامل على المسلمين، نحن نحتاج مشروعاً قابلاً للتصدير بسرعة يستدعي المحيط الإسلامي ليتحصل على إحاطة الأمة له وتقليده. هذا ما يتخوفون منه تجربة أردوغان غير قابلة للتصدير، قيام تركيا كدولة عظمى أمر مشكوك فيه.

التطور العسكري لدى الغرب قد يتدخل ليحسم قضية تركيا، ولا أظن أنّها ستخوض صراعاً من أجلنا، صربيا تتجهز واليونان وإيران،

ونحن نلقي الحمل بالكامل على الأتراك، سيكونون أمام خيار مواجهة العالم لأجلنا الكسالى أو الانجرار تحت سلسلة من التنازلات التي لن تنتهي حتى تهدم تركيا. علينا الخروج بمشروع وليس كيان، هنا التخطيط الاستراتيجي لصالح الأمة وهناك التخطيط النفعي الحزبي. الفرق بين الفكرين واضح.

أيتها الأحزاب الإسلاميّة، لم تتقاتلون إذن؟ وراياتكم مختلفة؟ لا أعتقد أن الإسلام نزل على أكثر من رسول ويحمل أكثر من كتاب، فلا تخبرني أن فهمي يختلف عن فهم فلان، فلذلك آثرت أن تكون لي راية وله راية.

الصحابة اختلفوا ولم تختلف رايتهم لأنّ فهمهم أرقى من اختلافهم. تحرّب الأحزاب في وقت اصطفاف الأمة لا يخرج من بين ثلاثة:

1_ خيانة، وقد وُجدت كتائب خائنة

2_ هوىّ متّبِع وشبهة، وقد وُجد من يقيسُ الأمة على حزبه

3_ سُلطة، وقد وُجد من دعا لنفسه

حكم تفرق الرايات يدخل فيه المجاهدون بحالة الاضطرار، لكن ما

حكم القادة؟ هل ينطبق عليهم نفس الحكم؟

أليست الفرقة من أكبر الكبائر التي تتسبّب باستباحة بيضة المسلمين؟

ما حكم من يشق صف الأمة؟

وحكم المجاهد في تعدد الرايات أنّه مضطر، لأنّ هذه وسيلته بالجهاد، لكن ما حكم من ينزع الأمة إلى رايات القادة؟ هل يقعون بحكم الاضطرار إن توفر لهم التوحد ورفضوه تحت أعذار اختلاف فهم؟

الأمة قاتلت تحت راية سلفي وصوفي وأشعري وفاجر،

هل اختلاف الفهم هو قياس صحيح بين المذاهب؟

ألم نشهد توحد الأشاعرة والصوفية خلف ابن تيمية؟

ألم نشهد توحد الأمة خلف العز بن عبد السلام؟

ألم نشهد توحيدها خلف الوزير نظام الملك؟
ألم نشهد توحيدها خلف المماليك ومنهم المقتصد ومنهم الفاجر؟
ما الذي اختلف الآن؟
قضية تعدد الفهم هي شماعة تتخفى خلفها الأحزاب ، والحقيقة أنّ
السلطة وفتنتها توغّلت عن نخبة النظام الحزبي فجعلت من
اختلاف الفهم ساتر يتخفى خلفه الكثير ليتوصلوا إلى أهداف
سلطوية.

طبعاً كلامنا لا يشمل جميع الكتائب التي لا تحمل أيديولوجية حزبية
وتقاتل مخلصاً ولا تعنيها هذه الصراعات ولم تدخل في دوامة
النزاع الفكري.

المنقّب في خلافات الأحزاب يجدها خلافات على مفقود، وهي إمّا
خلافات تاريخية وقعت ومضت عفا عليها الزمن، وإمّا خلافات
مستقبلية لا زالت بعيدة المنال عن متناول الكل، كالاختلاف على
شكل الدولة الإسلاميّة في المستقبل اختلاف على مفقود يؤدي
لعدم التعاون على الموجود من أزمات واستحقاقات تحتاج
للمواجهة.

لا يجوز بحال أن ننشغل بصراع الجزئيات في عالم يتصارع على
الكليات، إنّه تقزيم للأمة والرسالة والمعركة واتجاه نحو الهزيمة
التي رسّخت حالة من الإحباط لكثرة تكرارها ومرّ حصادها وعظم
غرمها ونكران متسببها.

الذين نقصدهم هم الذين وجدوا من سوريا أرضاً خصبة لمشروعهم
السلطوي فانساقوا خلفه ، فانشغلوا بخصومهم المنافسين لهم
أكثر من عدوّهم المتربّص بهم حتى يتصارعوا بعد أن غاب عنهم
المقصد الأساسي.

الذي يريد أن يُقيم الإسلام لا يفكر بالدولة ، بل يفكر بالأمة لتقييم
هي الدولة بروح التشاركية، ولكن التصلب المنهجي يأبى عليهم
هذا فتغلب عليهم روح الاجتثاث للمخالف، ولم يعد الأمر يتوقف
عند الإقصاء والإبعاد وانقطاع التعاون والحوار.

الإسلام ليس جغرافياً فقط ، فإن تحول لجغرافياً فإنه سيكون مُعَرَّضاً للتمدد والانكماش وفق الصراع الحضاري. الذي حوّل الإسلام جغرافياً هم ملوكُ المسلمين الذي كانت مُهمَّتْهم تقتصر على حماية الثغور، ومتى غلبوا حضارياً زالت دولهم كزوال دولة بني أمية وبني العباس ومن تبعهم.

هذا الموروث السلطوي الخاطيء وُورث من تلك الحقبة الملكية العضوض، الإسلام ليس دولةً فقط، ولن يكون دولة فقط، ومَنْ قزّمه بدولة فليتحمل الصراع الحضاريّ ولْيَكُنْ أهلاً له، فمن لا يملك أدوات الحضارة الذي أنا متأكد أنّ كلّ المسلمين لا يملكون معشارها فليقيم له دولة لنتحسر على زوالها بأيام معدودة للأسباب التي قلناها.

لا تقرّموا الإسلام بالمشاريع الحزبية الضعيفة، فتعرضوا على المسلمين مصطلحات لا يفقهونها حتى تحدثوا فراغاً تدخلوا من خلاله، ليس هذا سبيل المصلحين، بل حدّثوا الناس بما تفقهوا وادّعهم لما يستطيعون، وقدموا حفظ نفوسهم وأعراضهم كما قدمها الإسلام عن أهوائكم ومشاريعكم.

ساحة الشام هي ثورة شعب مسلم، وفي النهاية لا بُدّ أن تفهم الجماعات جميعاً أنّها لا مجال لمشاريعها الخاصة في هذا الوقت وإلا سوف تبوء بالفشل جميعها.

هذه بعض الخواطر مما نقلته عن بعض الأفاضل في أرض الشام ومما جاد بها خاطر من خضم التجربة الشامية المباركة أسأل الله تعالى أن يكتب فيها الخير والنفعة هذا وما كان خطأ فمن نفسي ومن الشيطان وما كان صواباً فبتوفيق الله والحمد لله رب العالمين



الأغرار كلما رأوا مجسماً كتب عليه
مشروع إسلامي قالوا:
(هذا ربي هذا أكبر)
فإذا أفل قالوا لا نحب الأفلين..

عباس أبو تيم شريفة

لا يحملنك خبث العلمانيين أن ترتمي بدم الغلاة
ولا يحملنك إجرام الغلاة أن ترتمي بروث العلمانيين
فكلاهما خبث
وطن النفس على الحق
عسى الله أن يخرج من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين
وما ذلك على الله بعزيز